مِنْ أَدَبِ الرِّحْلَاتِ

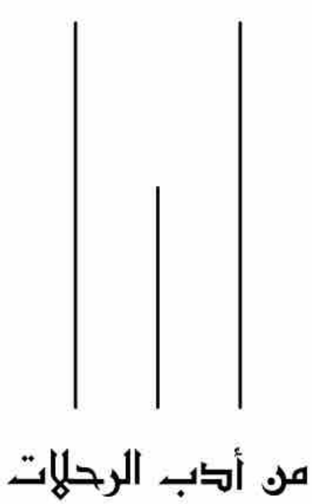




الدكتور عماد الدين خليل







تصوير
أحمد ياسين

الطبعة
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

من أدب الرحلات



الدكتور

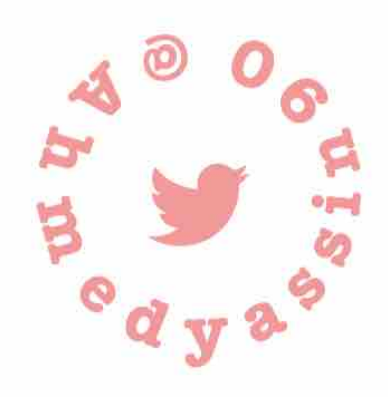
عماد الدين خليل



بسم الله الرحمن الرحيم

تصوير

أحمد ياسين


@Ahmedyassin90



المقدمة

أدب الرحلات كالسيرة الذاتية شحيح هو الآخر في مكتبتنا الإسلامية، رغم أن أجدادنا قدموا فيه الكثير.

كانوا يجوبون الآفاق على ظهور الجمال والبغال، أو صهوات الخيول، ويهدرون أعمارهم المحدودة قبل أن يؤوبوا إلى ديارهم؛ لكي يعكفوا على تدوين رحلاتهم، ويقدموا للأجيال حصائد تجوالهم المترع بالرؤى والخبرات.

ونحن اليوم نختزل الزمن، فتنقلنا وسائط النقل السريع من مكان إلى مكان في يوم أو بعض يوم، وهي تطوي المسافات، وتضع بين أيدينا (بانوراما) البلدان والشعوب... وما هي إلا أن نحفز ذاكرتنا قليلاً، ونستجيش مخزونها لكي نحيل (التجربة) إلى لون من الإبداع الأدبي تتوق إليه جماهير القراء، ربما أكثر مما تتوق إلى الألوان الأخرى من الآداب والفنون.

هاهنا يجد المرء نفسه قبالة المؤرخ والفنان معاً. . . القدرة الدقيقة على الالتقاط والتسجيل. . والرؤية الانطباعية التي تعرف كيف تتلقى المرئيات، وتتعامل معها بأقصى درجات الحساسية والصفاء.

فأدب الرحلة ليس بحثاً في التاريخ ولا وصفاً جغرافياً. . كما أنه ليس قصة قصيرة، أو رواية، أو قصيدة شعر، وإنما هو هذا وذاك، ومن ثم يكتسب خصائصه المتميزة وطعمه العذب. . . وقدرته في الوقت نفسه على تلبية مطالب المؤرخين والجغرافيين والأدباء الذين يطمحون لمعاينة الوقائع، وسبر غورها العميق.

إنها حركة في الطول والعرض والعمق. . . تجوال في جغرافية الأماكن والظواهر والأشياء. . وإيغال في النبض الذي كاد يغيب عن العيان، ولكنه ما يلبث أن يمنح سخاءه لأولئك الذين ينصتون جيداً للأصوات البعيدة، وهي تتشكل تحت جلد الظواهر والخبرات. . .

وأدب الرحلة. . في بدء الأمر ومنتهاه. . هو محاولة لاكتشاف سر الأشياء. . والتعرف على تكوينها الذي يبدو أحياناً ككتل الجليد العائمة في المحيطات والبحار، لا يظهر منها سوى العشر، وتبقى الأعشار الأخرى مغيبة تحت الماء. .

لقد أتيح لي بفضل من الله ونعمة أن أرحل إلى بلدان عديدة وديار شتى، وأن أدون مشاهداتي، وأرسم انطباعات الأشياء على صفحات العقل والحس والوجدان.

ولأن إسطنبول والخرطوم بالذات من بين العديد من البلدان الأخرى تقدمان (الوعد) في زمننا الراهن هذا. . وتمنحان ألواناً من

زاد الفكر والروح. . . كانت هذه الوقفة السريعة تحت ظلالهما السخية.

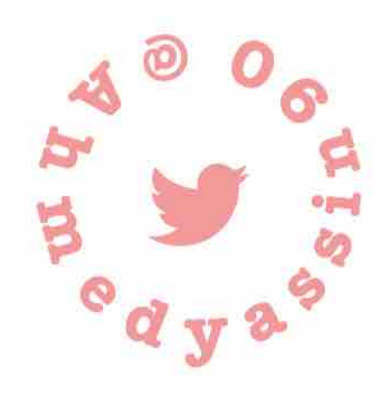
ولأن مكة. . والمدينة. . تقدمان وعداً باتجاه آخر ينوء القلم بحمله. . . كانت محاولة الحديث عن فضائهما اللامتناهي. . .

رحلة إلى إسطنبول في خريف عام ١٩٩٢م للمشاركة في المؤتمر العالمي الثاني حول فكر بديع الزمان النورسي. . . وأخرى إلى الخرطوم في شتاء عام ١٩٩٣م بدعوة من جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية. . . وثالثة إلى إسطنبول في خريف عام ١٩٩٥م لحضور المؤتمر العالمي الثالث حول النورسي. . . ورابعة لأداء فريضة الحج في ربيع عام ١٩٩٨م.

وما هي إلا محاولة متواضعة للمساهمة في هذا اللون من الأدب الذي ينتظر المزيد في زمن تشهد فيه حركة الأدب الإسلامي المعاصر تدفقاً في تياراتها الخصبة يقول للإنسان الضائع: هاهو ذا صوت الإيمان العف، والكلمة المتوضئة بالطهر والنور. . يجيئان في موعدهما تماماً لكي يلاحقا أدب الكفر والضلال والدجنة والفجور الذي ظهر فساده في البر والبحر؛ بما كسبت أيدي الأدباء الذين مرقوا عن مطالب الفطرة والدين فضلوا وأضلوا. . . وآن الأوان لكي تثوب (الكلمة) إلى الحق، وتقود التائهين والحيارى مرة أخرى إلى الصراط. .

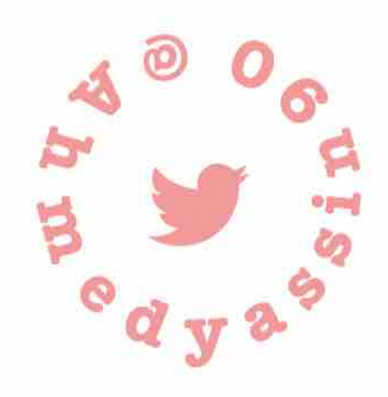
الموصل

في ١٩٩٩/٥/٩م


@Ahmedyassin90



الرحيل
إلى إسطنبول


@Ahmedyassin90

١

الطائرة تتباطأ قليلاً وأخي (أديب) يشير إلى النافذة: انظر، إنها إسطنبول... ألقي نظرة سريعة... الأضواء تنبض في كل مكان.. تنتشر على مساحات واسعة.. تعلو وتهبط كما تريد لها طبوغرافيا الأرض أن تكون.. البسفور يكاد يرى في الليل.. وعلى بعد خطوات يمتد مرمرة، ويمضي مغرباً صوب تخوم الدردنيل البعيدة.. أتذكر ما قاله أستاذ جامعي رحال: لقد جبت العالم كله.. من أقصاه حتى أقصاه... فلم أجد أروع من إسطنبول.. وأقول في نفسي والذكريات تتناوشني كما لو كنت في حلم: بوابة العالم.. الدرب الذي اجتازه العثمانيون يوماً في طريقهم إلى أوروبة.. هاهي ذي إسطنبول أخيراً.

لأول مرة أجيء إليها.. ما كنت قد رأيتها من قبل.. مدن كثيرة حططت فيها الرحال ليلاً.. لكن هذه.. يبدو أنها تريد أن تقول شيئاً ما قالته المدن الأخرى.. أحس كما لو أنها تقدم وعداً من نوع ما.. لكن الليل يصدها عن أن تقول كل شيء!

في المطار يستقبلنا الأحبة... لهفتهم للقاء لا تقل عن لهفتنا.. عبر الحواجز الموقوتة تبادلنا المحبة.. بعدها بلحظات كانت الأحضان والتربيت الودود الذي تعلمناه منهم تقول شيئاً «كثيراً».. تجتاز حواجز اللغة، وتحكي عما يختلج في الأعماق.. بعد عشرة أيام.. عندما سنغادر إسطنبول سيكون التقليد نفسه كلمة الوداع، وسنرجع إلى ديارنا ونحن نفيض حباً!

في سيارات ثلاث أو أربع نجتاز شوارع إسطنبول وأحياءها. . أحاول بصعوبة أن ألتقط المفتاح وأن أدخل. . فإن الشوق يا مدينة الفاتح يعذبني منذ زمن بعيد. . يعرش في روحي. . كأن عمره ألف سنة. . والوجد يفيض بي يا إسطنبول. . ولكنه الليل!

حططنا الرحال في فندق (ميم). . بعد يومين سيبدأ المؤتمر الموعود. . وسيكون اللقاء مع فكر النورسي الذي ما كنا نعرف من قبل كم أنه يوغل في شرايين إسطنبول، فيعمر العقول والقلوب. . عشاق من شتى المستويات الثقافية والأعمار. . . يرحلون معه كل يوم وهو يطرف بهم في الملكوت، فيعلمهم كيف يصير العلم طريقاً إلى الله وكيف يصير الإيمان علماً. . يعلمهم أيضاً كيف تتوحد الأشياء، والكتل، والحياة، والسموات، والسنن، والنواميس، والجبال، والينابيع، والشلالات، والأنهار. . لكي تقول شيئاً واحداً.

ما كنا نعرف أيضاً. . أن طلابه يتعاملون بمفردات لغة قل نظيرها بين اللغات في عصر التكاثر والتخمة الشيئية والاكتظاظ. . لغة يتشكل قاموسها من البذل والعطاء والتضحية والمحبة. . . وليس ثمة (أنا) على الإطلاق. . إنه (الآخر) الذي يومئ فيهرع إليه العاشقون لكي يمنحوه كل شيء.

ولسوف نعرف يا إسطنبول، قبل هذا وذاك، أن هذا الدين يعود كرة أخرى لكي يعرش كالورد والفل والريحان في أحيائك وأزقتك وجوامعك وشوارعك وساحاتك. . يخضر عوده، يستوي على سوقه، وينثر العطر على الغادين والرائحين، مذكراً «إياهم»، صباح مساء، أن

رسول الله ﷺ هكذا أرادها أن تكون.. حياة مفعمة بالعطر والريحان، مغسولة بالنسمة البليلة المتدفقة من مكان ما في السموات.. تمسح وهي تمر، كل الآلام والعذابات التي يئن منها الإنسان في القرن العشرين.. تداوي الجراح التي أثخنته بها حضارته الكئيبة الجانحة... وتعطيه الأمن والتوحّد والتوازن والفرح... وهاهو ذا النورسي في (كلماته) يجيء في الوقت المناسب تماماً لكي يذكر بهذا فيضع البذار وينتظر الوعد!!

٢

وأجدني في اليوم التالي قبالة السلطان أحمد.. وأيا صوفيا.. ومخزن المياه الروماني العتيق.. والجامع الكبير وهو يتمحض لله.. وجاره المحمل بتراث القرون يئن من تداخل الأصوات.. التوحيد النقي كالبلور وهو يدافع غبار الشرك والوثنية.. والسرداب العتيق ذي الممرات الضيقة والأضواء الخافتة، وهدير المياه المتدفقة من السقوف كالشلال يتوافق مع الأصوات الأوبرالية فينقلك إلى التاريخ.

هاهنا كل شيء ينقلك إلى التاريخ.. ولكن الجامع لا يقف عند هذا.. إنه يمضي بك بعيداً باتجاه كل شيء إسلامي في هذا العالم.. يذكرك ويدعوك.. يناديك.. وسواء عليك أسمعت النداء أم لم تسمعه فإنه يمضي بلغته الخاصة التي نعرفها جميعاً؛ لكي يصعد بالعاشقين إلى السموات العليا.

القبّة الوسطية الفارهة ذات الزخارف والنقوش والخطوط؛ التي تكاد تسبح بحمد الله وهي تتثنّى وتتعاشق وتلتقي وتفترق.. هنا وهناك.. النوافذ العليا ببلورها الملون الذي يتحدث إليك هو الآخر بلغة الموشور عندما يتكسر ضوءُه فيمنحك الأحمر والأزرق والأصفر والبرتقالي.. القباب الصغرى وهي تطوف بالقبة الأم وتعينها على ثقلها، فتمضي به قليلاً قليلاً «صوب الأسفل» وهي مع وظيفتها المعمارية هذه تمنح حالة جمالية ما عرفتها جوامع العالم كله.. ما عرفتها سوى إسطنبول.. إنها في كل مكان هناك تطل عليك بهذا التركيب المدهش من القباب الصغرى التي تتحلق حول الأم... تتدرج وتتلامع، ويتكور بعضها إلى جوار بعض.. لكأنها الأكف التي تنحني منطوية على الخشوع والتسليم، ومن بين منحنياتها ذات الجلال تبرز بين لحظة وأخرى، منارة، تخترق الفضاء كالسهم ميممة وجهها صوب السماء... منائر عديدة تنبثق هنا وهناك.. رفيعة.. أنيقة.. مصعدة إلى فوق.. الإصبع المتفرد الذي يشير دائماً إلى الله الواحد، حيث بعد التحرر من شد الأرض، لاشيء سوى الإحساس الممتلئ الذي يكاد يلمس ويرى بأنه ليس ثمة إلا الله وأن لا إله إلاه!

اللحظة تأخذ دهشتي بالتلاشي، وأدرك تماماً لماذا ظل أبناء إسطنبول، وهي تقف بمواجهة أوروبة تماماً.. إزاء حضارتها التي لا تعرف الله.. لماذا ظلوا يحتفظون بإيمانهم بعمق وعذوبة معاً.. إن المفتاح وكلمة السر تبدأ هاهنا.. في الجامع.. وأتذكر عبارة كارودي «كل شيء يبدأ في الجامع ويؤول إليه»... كلماته المؤثرة وهو يتحدث

عن حجارته التي تكاد تصلي وعن النور الذي ينقلك إلى عالم آخر، فيما وراء هذا العالم، مشع في هذا العالم.. أتذكر أيضاً عبارة جاك ريسلر: «في المسجد ينبض قلب الإسلام، وفي أرجائه يحس المرء إحساساً حياً أنه بحضرة الله.. الحق أنه لا شيء في المسجد إلا البساطة والتجانس والجمال».

والمسلم ـ كما يحكي فليب ـ حتى ما يكاد يدخل الصحن الذي ينكشف للسماء، والذي تحيط به الأروقة؛ حتى يجد في نفسه ميلاً «شديداً» إلى الانعتاق من البيئة المادية التي حوله ثم نزوعاً في الوقت نفسه إلى السمو نحو الملأ الأعلى، وهذه المئذنة الطويلة الرشيقة أشبه بالإصبع تنتصب مشيرة إلى السماء، وما في جوف المسجد، فإن القبة المتلألئة بالمصابيح تبدو وكأنها صورة منقولة عن قبة السماء.. وهؤلاء المصلون حولك معاً أو فرادى، في كل مكان من المسجد يولدون في النفس شعوراً بمشاركة تسع العالم كله.

حقاً إن هندسة معمارية كهذه هي كما قال أوليغ غرابار يوماً: نقل بصري لرؤية العقيدة الإسلامية الكونية!!

أعرف أيضاً لماذا ظل الصوت التركي غنياً «إلى هذا الحد عذباً، «مؤثراً» ينطوي في اللحظة الواحدة على عشرين طبقة أو تزيد.. بعد أيام سيقدر لي أن أسمع توشيحاً.. أن أذوب وجداً «وحزناً» في صوت تركي ينشد (شفاعة يا رسول الله).. صوت آخر يخاطب بنبرة عتاب متشكية، كل الذين لا يقدرون على تحمل مشاعر الصعود إلى

فوق: «ألم أقل لك؟» بعد أيام سأكافح وأنا أجلس إلى جوار أخ نورسي يقود سيارته في جبال بورصة لكي أمنع دمعة تريد أن تفارق مكانها.

هنا.. قبالة السلطان أحمد، قبالة إبداعية المعمار المدهش (سنان) تحت القبة الكبرى تماماً.. إزاء الخطوط والنقوش والزخارف.. في مواجهة البلور ذي الألوان.. في غمرة الفرح الروحي الممتزج حتى آخر جذر فيه بالبهجة الحسية، يريد الإنسان أن يصرخ.. أن ينشد ويغني.. أن يرفع صوتاً.. لكي يتخفف بعض الشيء من معاناته.. أن يصب قليلاً من الماء على الجمر الذي يتسعر في أعماقه.

وأنت تتذكر محمداً عليه الصلاة والسلام تجده حاضراً، قبالتك، وتتذكر معه يوم الهول ولا تملك إلا أن تتوسل إليه، وأن ترفع إزاءه أعذب وأعمق وأرق صوت في هذا العالم متشبثاً بأذياله: شفاعة يا رسول الله.

وأنا أنزف دمعي بصمت في محاولة للتشبث بأذيال رسول الله، كنت أدير بصري في أرجاء الجامع الكبير... هنا يا إسطنبول كان البدء.. وهنا سيبدأ الرحيل الثاني إلى الله.. والعالم.. وكل الأشياء الجميلة التي حدثنا عنها النورسي في كلماته..

والتجول في أيا صوفيا يورث حزناً.. محاولة يائسة تكافح من أجل أن ينطفئ التوحيد الذي هو أغلى وأعمق وأثمن ما يملكه المسلم في هذا العالم.. واجتياز حذر بين الممرات الضيقة للحمام الروماني العتيق، يضع الإنسان في دائرة الضيق والاكتئاب.. وأريد أن أعود

إلى السلطان أحمد. . . أتمنى أن أبقى الساعات الطوال في مسجده الكبير. . هاهنا يستعيد الإنسان البهجة والفرح. . يتجاوز كل أنماط الكآبة والحزن التي تفرض حصارها القاسي في زحمة القرن العشرين.

إن السلطان أحمد. . فيما بعد: محمد الفاتح، والسليمانية، وبايزيد وغيرها عشرات الجوامع الكبرى، توقفك قبالة التاريخ ولكنها لا تأسرك فيه. . إنها بقوة العقيدة. . التي أنشأتها وزينتها، تمضي بك خارج الحيز المحدود، فتحررك من أسر الزمن والمكان. . . خارج دائرة التاريخ تماماً. .

في جوامع إسطنبول عرفت تماماً كيف يكون الإنسان في اللحظة الواحدة، في التاريخ وبعيداً عنه، وكيف كان النورسي وهو يتحدث عن الذرات والأشياء، يتحرر من شدّها وأسرها وينطلق خفيفاً رشيقاً إلى الفضاء اللانهائي، وهو يتأبى على مقولات الجغرافيا ونسبيات التاريخ.

٣

وهاهو ذا البسفور يحتضن مرقد أبي أيوب بحنان. . ثمة لغة يصعب الإمساك بحروفها تتشكل بصمت بين المضيق الهادئ العميق والشهيد القادم من أعماق الصحراء، صارخاً عند بوابات القسطنطينية الغارقة في الشرك. . . الضائعة. . . التي فقدت هويتها منذ زمن بعيد: افتحي!

وهو يدلف إلى الشيخوخة، يتسلق الأسوار بخفة مقاتل في العشرين فيلتقي الله هناك! في تاريخ جد مبكر أراد أبو أيوب الأنصاري، وكل

المجاهدين الأوائل أن يفتحوا الأبواب، وأن يمنحوا القسطنطينية، وأوروبة من ورائها، كلمة التوحيد.

في علم الله وقدره الذي ينسرب في المجاهيل ما كان مكتوباً لهم هذا... في عصر سليمان بن عبد الملك، دقت أبواب القسطنطينية مرة أخرى، فلم تفتح... بعدها بعشرات السنين أوغل الرشيد في الأناضول ميمماً وجهه صوب البوابة الشرقية نفسها... فلم يكتب له الفوز.. يكفي المسلمين شرفاً أنهم حاولوا.. أنهم استكملوا الأسباب.. وتركوا الباقي على الله..

ليس أبو أيوب وحده... عشرات الآلاف من إخوانه وأحفاده، تساقطوا عند الأسوار ودفنوا هناك. واليوم، قبالة مرقده المتواضع في حضن البسفور.. يتوحدون جميعاً.. والأنصاري ليس وحده.. والذين استشهدوا معه بعيداً بعيداً جداً عن أهليهم وديارهم ليسوا وحدهم.. سيجيء محمد الفاتح.. ومعه عشرات الألوف من المجاهدين الأتراك لكي ينضموا إليهم.. يطلبون الشهادة هم الآخرون عند أسوار القسطنطينية.. يدقون أبوابها صارخين كرة أخرى: افتحي.. وسيصير محمد الفاتح ستاراً لقدر الله..

خذها يا محمد.... فلقد آن الأوان..

يدخل الفاتح.... وما إن تطأ قدماه الأرض مترجلاً عن فرسه حتى يخرّ ساجداً لله... ومن ورائه مئات الآلاف من المجاهدين.. بعضهم كان قد استشهد منذ ثمانية قرون.. بعضهم يستشهد اللحظة.. آخرون اقتحموا معه الأسوار!

الآن... الكل ينهض.. وأبو أيوب يربّت على كتف الفاتح: بارك الله فيك.. هاأنت ذا تمنحني الماء بعد عطش تسعمئة عام أو تزيد.. هاأنت ذا تبل ريقي.. فبارك الله فيك...

أقف قبالة مرقدك يا أبا أيوب لا أدري ما أقول.. أقرأ الفاتحة.. أتلفت بحثاً عن المزيد.. ذكريات مترعة بالحزن الكبير تتقاذفني.. أجدني كرة أخرى قبالة التاريخ وهو يتشكل من جديد.. والسؤال المعذب نفسه يهدر في كياني الذي يتداعى إلى حد الإعياء.. ينذر بالسؤال نفسه: لماذا؟ لماذا وقد فتح العالم على أيديكم، يتراجع الأحفاد فيدخل عليهم الغرباء الأبواب ويقضم الجراد الأصفر ما زرعوه فما يلبث أن يصير حطاماً... لماذا يا أبا أيوب؟! لماذا يا محمد الفاتح!؟

صعب أن تعيش التاريخ وهو يتنامى قبالتك.. في دمك وأعصابك وذكرياتك.. وأصعب منه أن تجد نفسك وأهليك وديارك.. إزاء كل انتصاراته الكبرى تنزف حزناً وألماً وضياعاً.

نصلي في المسجد ثم ما نلبث أن نغادره عائدين... عن شمالنا كانت تطل بين الحين والحين الأسوار العتيقة، مخترقة شوارع إسطنبول وساحاتها.. نجتاز ثلمة واسعة في السور وندلف إلى هناك..

من يجيء إلى إسطنبول، حتم عليه أن يزور مرقد أبي أيوب، وأن يسلم عليه، وإلا فإنه لن يجد إسطنبول.. إنه بداية الطريق الطويل إلى الفاتح..

وبين الرجلين... الشهيد المتغرب الآتي من ضمير الصحراء.. والشاب الفاتح القادم من أعماق الأناضول، نهضت إسطنبول، شاهدة على أنه ما من قوة في الأرض يمكن أن تقف في وجه أمة عرفت كيف تصير شهادة التوحيد هويتها المتفردة بين الأمم والجماعات والشعوب.

٤

في المساء دُعينا لحضور واحدة من حلقات النور المنبثة في شرايين إسطنبول.. الصالة العليا تزدحم بالمستمعين.. يتحلقون بشغف حول أستاذ يقرأ مقاطع من رسائل النورسي التي لا تكف عن العطاء.. من أعمار شتى جاؤوا.. تبدأ بالصبا وتنتهي عند حافات الشيخوخة.. رأيناهم هناك شباباً وكهولاً.. وشيباً.. تتجه أبصارهم صوب البؤرة نفسها.. يتوحدون قبالة النورسي كما لو كان حاضراً إزاءهم.. والكلمات تمطر عليهم أمناً ومحبة ويقيناً وسلاماً.. تمنحهم التين والزيتون والكمثرى.. تضعهم في قلب العالم... وتنطلق بهم من هناك صوب الملكوت.... إن قراءة واحدة في إحدى رسائل النور تكفي لأن تلبي أشواق الإنسان... لا يريدك أن تنفصل عن العالم.. سعيد الجديد هذا.. ولكنه يعطيك في الوقت نفسه الفرصة لأن تطير في الفضاء الكوني بألف جناح... لا يدفعك إلى الفرار من التحديات إنما يضعك قبالتها تماماً.. ويعطيك «الكلمة» التي بها تستجيب فتجتاز المجاهيل..

لم نكن نعرف التركية لكننا كنا نقرأ في نظراتهم وهي تلتهم «الكلمات». . في شوقهم المتدفق للحاق بالأستاذ. . . في صمتهم الذي يكاد يحكي ويقول. . . ما الذي كان يقرؤه.

الأستاذ. . ويكفي أن يكون الأخ (إحسان) إلى جوارك لكي تكسر حواجز اللغة، فيصل إليك، بقدرته المتمرسة على الترجمة، ما يريد الآخرون أن يقولوه. . . للحظات كنت أحس بأني أكاد أطير معهم إلى هناك عابراً بحار الدنيا وجبالها ومتاريسها مصعداً إلى الفضاء الذي تشف فيه الروح، وينقدح زناد العقل، ويصير الإنسان هكذا قبالة الكون، مشاركاً في المصير.

تخترق ذاكرتي ثلة من الذين عاشوا معه ولا يزال بعضهم على قيد الحياة. . أحدهم يجلس قريباً مني. . إنه الأخ الكبير (م) أتيح له أن يرافق الشيخ في سنيه الأخيرة. . . وبعد ثلاثين سنة من رحيله، يظل (م) يتذكر اللحظات التي عاشها مع أستاذه. . الزمن الواعد بالعطاء. . ما من فرصة تتاح له حتى يتدفق كلامه عذباً «سائغاً» كالعسل المصفى، وهو يحكي عن (سعيد). . حديثه عنه لا يمل رغم حاجز اللغة. . لم يكن لسانه الذي يتحدث. . كان يفتح قلبه على مصراعيه ويأمره أن يقول. . كنا نلمس هذا في كلماته. . في نظراته المترعة بالشوق لأستاذه الراحل. . بالمحبة والإكبار. . بالعشق الفريد الذي يصعب وصفه. . نظراته التي يلتقي فيها التواضع والكبرياء. . والحزن. . والفرح. . والبراءة والهم الكبير. . والطفولة والشيخوخة. . والعفوية والتوتر. . نظراته التي أسرتنا جميعاً، والتي أحببناه من أجلها.

أي تعلق هذا بالأستاذ؟

لا أدري لماذا كنت أشعر بالحزن وأنا أنظر إليه... وهو يدير عينيه بحذر هنا وهناك.. كأنه طائر متفرد أرغم على مغادرة عشه وألقي به في المجهول.. لكنه بين لحظة وأخرى ما يلبث أن يحس بالأمان... وكان يهمني أن أتابع هذا الإحساس، فحيثما جاء اسم النورسي على لسان أحد المتحدثين، حيثما دار الحوار حول هذا الجانب أو ذاك من فكره... كنت أجده يبتسم بهدوء ويخفض رأسه، كما لو أنه وجد عشه الضائع، وهو إذ يحس بالأمان يتدفق كرة أخرى بذكرياته العذبة عن الشيخ... لا يرى بأساً أن يجلس عند أقدام المتحدثين مادام يعرف سلفاً أنهم سيفتحون الأبواب لكي يدخل بهم إلى عالم النورسي السعيد...

فيرتاح..

أحببناه كما لم نحب أحداً من تلامذة الشيوخ الكبار ومريديهم... إنه مريد من نوع فريد.. زماننا الممحل هذا بأمس الحاجة إلى عشرات من مثله... إلى العشق الكبير الذي يتدفق من قلبه تجاه (الأستاذ) فينير الطريق أمام السالكين، ويمنحهم التعاليم.

قرأت عشرات الكتب ومئاتها، ولكني ما تعلمت منها قدر ما تعلمته من الأخ الكبير (م).. أسأله ونحن في طريقنا إلى قرية (كوزلجة) المطلة على (مرمرة) عند حافات إسطنبول الغربية... هل كان سعيد يمزح؟ وما هو طعامه المفضل؟ وكيف كان يقضي أوقاته خارج دائرة القراءة والكتابة؟

يتحفز قبل إكمال السؤال.. محبته للأستاذ حفرت في ذاكرته كل صغيرة وكبيرة، فما من قوة في الأرض بقادرة على أن تدفعها إلى دائرة النسيان... حاضر هو مع أستاذه في تفاصيل حياته اليومية ومنحنياتها.. ولك أن تعرف مسبقاً أنك ستتلقى الجواب الذي تطمح إليه، بكل دقائقه وخطوطه ومفرداته..

كان سعيد يحب المصارعة.. رياضته المفضلة كانت قبل أن تفترس الهموم صحته وعافيته.. الكل تمكن من الفوز عليهم.. مرة واحدة فقط كاد خصمه أن يتفوق عليه.. فما كان من سعيد إلا أن تحسس قبضة خنجره.. استله من مكمنه ووخز به الخصم.. فآثر الانسحاب.. لم يعتد سعيد أن يهزم في حياته.. أن ينكسر لأحد.. هكذا قال الأخ (م).

باعتزاز.. العسل المصفى كان طعامه اليومي.. وجبته المفضلة.. يكفي أنها تذكره بكتاب الله.. بآياته البينات التي تحدثت عن النحل وعن عسله الذي يشفي الناس.. يكفي هذا لكي يقيم الشيخ معه علاقة مودة لم تفارقه حتى اللحظات الأخيرة.

سألت كثيراً وتلقيت كثيراً.. والأخ (إحسان) يمارس مهمته الصعبة سفيراً بين العربية والتركية، ومن وراء كل سؤال وكل جواب كان الأخ (م) يفرض على الذين التقوه، ربما لأول مرة، حضوراً من نوع غريب، يجعله يدخل قلوبهم من غير استئذان، ويعرش هناك..

وماذا يقول المرء عن الآخرين (الأخ ف والأخ أ والأخ ب.. و.. و) ممن وضعوا حياتهم كلها في خدمة الأستاذ والتمكين لفكره في

الأرض؟ إن تفوقهم المدهش يبدو هاهنا: القدرة على التجرد وإفناء الذات من أجل مسألة هي أكبر بكثير.. وأعمق بكثير من كل إغراءات (الأنا) ونداءاتها.. إنهم يذوبون تماماً، في بؤرة النور... وهم يعرفون أنهم لن يضيعوا، لأنهم بهذا سيجدون ذاتهم كرة أخرى.. وسيتوحدون قبالة كل المصاعب والتحديات.. فهل ثمة مغنم روحي في حياة الإنسان أكبر من هذا؟!

٥

ويوماً أقلتنا السيارات إلى مدرستين لأبناء النور.. من أجل أن نرى ما الذي يجري هناك.. والذي رأيناه يمنح الفرح ويثير الإعجاب.

إحداهما مدرسة (رسمية) تعطي المفردات المنهجية نفسها التي تعطيها المدارس الأخرى: العلوم والإنسانيات.. ولكنها تضيف إليها لمسات إيمانية، فتعرف كيف تخرج بها عن دائرة الكفر والمروق إلى ساحة اليقين العميق.

جميل أن يتلقى الإنسانُ الكيمياء والفيزياء والأحياء... والرياضيات وكأنها سيمفونية تسبيح لخالق الملكوت.. رائع أن يصير تدريس العلوم الصرفة تعبيراً عن إبداعية الله في الكون والعالم والوجود.. والجغرافية.. عندما يتم التعامل معها من منظور إيماني تصير بانوراما تفتح شاشتها اللامتناهية على المدى، وتمنح الطلاب الكثير.. الكثير جداً.. مما لا تستطيع أن تعطيه جغرافيا الكتل

المادية، والمساحات الضيقة، والتعرية والتآكل والتحات.. والظواهر المنبتة عن أسباب السماء.

تناولنا غداءنا في السرداب الأرضي الأنيق... اعتذر الدكتور سعاد عن تواضع الطعام... ليس متواضعاً.. قلنا له، يكفي أنه معجون بالمحبة لكي يصير طعمه شهياً، صعدنا إلى دور آخر: توظيف جيد لتكنولوجيا الإيضاح... مما يسمى بوسائل الإيضاح في أحدث معطياتها... ودخلنا إحدى قاعات المحاضرات لكي نعاين الطلبة وهم يتلقون درساً، في عز الصبا والشباب هؤلاء الطلاب.. عندما تحين مواعيد الصلاة ما كان أحدهم يتخلف عن حضورها... بهندامهم الأنيق.. بتعشقهم للعلم.. بالتزامهم بمطالب الإيمان.. يصيرون شيئاً آخر يختلف عن ملايين الطلبة الضائعين في أروقة المدارس، لا يعرفون مواقعهم من خرائط العالم والوجود.. ولا يملكون أيما رؤية مقنعة للمصير..

هاهنا يعطون الجواب.. تصير الكيمياء والفيزياء والجغرافيا والنبات والحيوان فرصة جيدة لفك اللغز الذي ضيعتهم فيه حضارة المادية والتكاثر، ويتفتح إزاء وعيهم تماماً سر العالم كما لو أنه يتشكل اللحظة بإرادة الله!

أية متعة هذه وأي توحد عميق؟.. عندما يمسك التلميذ بأعنة حياته جميعاً.. ويسوقها إلى الهدف الواحد بعيداً عن التشتت والتبعثر والازدواج..

قائد إوركسترا يغدو الإنسان وهو يجد العلم الذي يصلي لله والصلاة التي تعلم الكيمياء والفيزياء والجغرافيا والنبات والحيوان.. هاهنا ليس ثمة أصوات متنافرة، كما في الغرب الممزق.. ليس ثمة حتى أصوات شتى.. إنما هو التوافق الهارموني الذي يضع الإنسان قبالة اللحن الكوني العذب.. قبالة الوفاق الجميل السعيد بين الإنسان والله والكائنات.. هذا الذي تحدث عنه النورسي فأطال الحديث.

ما يلبث المصعد أن يحملنا إلى الدور الأخير لأداء الصلاة وشرب الشاي.. صالة فارهة تطل على مساحات واسعة من إسطنبول.. شمس الخريف تخترق زجاجها الواسع بهدوء.. والخرائط الكبيرة المعلقة على الجدران تضع العالم بين يديك..

هنا نحن قبالة إسطنبول.. والشمس.. والعالم.. أي صلاة هذه التي تؤدى هنا؟ أي توافق بين الظواهر والأشياء؟؟ كانت المحبة تعمر قلوبنا.. من العراق جئنا.. ومن مصر.. وتركيا.. وأوروبة.. نتحدث بألفة كما لو كان أحدنا يعرف الآخرين منذ مئات السنين.. نصلي سوية فنزداد توحداً.. وانسجاماً.. الحياة الإسلامية ـ أخاطب نفسي ـ تتفوق على حياة الآخرين.. كأننا في مضمار ألعاب الساحة والميدان.. والمسلمون يهرعون إلى خط النهاية، وقد خلفوا وراءهم بمسافات متطاولة كل العدائين.

أقول لأخي (عاشور) الذي يدخل قلوب الذين يعرفونه جيداً بغير استئذان: انظر.. إنه مكان مناسب تماماً لأداء الصلاة.. إن الأخوة

الأتراك يعرفون تماماً بتمرسهم على التعامل الجمالي مع الظواهر والأشياء، كيف يختارون الموقع المناسب تماماً . . .

الأخ (بهجت) كان يحكي عن كتابه الذي لقي رواجاً كبيراً:

(قصص الحيوان في القرآن الكريم) . . وأسأله عن مؤلفاته الأخرى فيقول: إنها ليست كهذا الكتاب الذي جاوزت طبعاته العشرين . . إنه يغريني بتجاوز حاجز الأدب واستجداء نسخة منه يرسلها على عنواني بالبريد . . فيستجيب الرجل مسروراً . .

ترى هل سيصلني الكتاب؟

ويدور الشاي، ومع الشاي حديث عن الصوت التركي العذب ذي الطبقات الغنية والقدرة العجيبة على التعبير المؤثر العميق . . وثمة أخوان نورسيان كانا يجلسان قبالتنا . . أخذا يدندنان بموشح عذب . . للحظات أحسست أنني أكاد أذوب وجداً . . كما في كل مرة سمعت فيها صوتاً تركياً . . وتمنيت لو أنهما يستمران ولو أن عقارب الساعة تتكسر، كما يقول الأدباء الطليعيون. ولا يتبقى ثمة خارج نطاق الزمن والمكان، سوى الصوت العذب الذي ينقل بنبراته المتموجة الشاكية عشق الله . . والرسول . . وكل القيم والموجودات والأشياء الجميلة في هذا العالم . .

الوجع الكبير هاهنا . . في الصوت . . وهو قدير على أن ينقلك إلى اللامتناهي . . يحررك من أسر المحدود . . ومن كل ما يعذبك في هذه الدنيا . . يشفك وجداً . . وحزناً . . يصعب وصفهما . . ويجعلك تطير إلى السموات بأجنحة لا تدري من أين؟

الوجع الكبير هو هذا. . . ولسوف أظل أذكر الموشح التركي كأعذب الأصوات التي سمعتها في حياتي، وأكثرها تشكياً ووجداً. . .

٦

نغادر المدرسة في طريقنا إلى الجانب الآخر من إسطنبول. . نجتاز جسر البسفور الطويل. . ونصعد في المرتفعات. . المدرسة الأخرى التي نيمم وجوهنا إليها هي في أعلى نقطة هناك. . موقع يطل على إسطنبول كلها ويضعها والبحار التي تتخاصر معها بين يديك. . السيارات نفسها أخذت تئن من عنف الصعود. . والأخ الدكتور (شلبي) يفضل النزول والتوجه إلى المدرسة مشياً على الأقدام، على أن يقع المحذور فلا يتاح لزوجته أن تراه مرة أخرى.

رائع هذا الرجل. . . إنه في لحظات الجد يستطيع أن يبكيك. . ثم ما يلبث أن يخترق جدار الحزن، على حين غفلة، لكي يطرح تعليقاً، أو يحكي نادرة مما سمعه أو وقع له، فيرغمك على أن تضحك. . أليس هو الذي فك لغز الأخوين بهجت وعاشور، إذ رآهما يتهالكان على شراء هدايا لزوجتيهما من الملابس الجلدية، بالشعار الذي أزال كل غموض. . (الجلد أو الجلد) بينما إزاء إلحاح أشد عنفاً من زوجته يختار شعاراً آخر على النقيض تماماً. . (النصر أو القبر).

ندلف إلى المدرسة. . يتلقانا مديرها الشاب الذي يتقد حيوية ونشاطاً. . . يقودنا إلى غرفة الإدارة المطلة على الوادي. . إنها مدرسة العلوم الشرعية - يقول - نتلقى الطلبة من مختلف البقاع والأعمار

فنعلمهم القرآن والعربية وعلوماً إسلامية أخرى؛ لكي ما يلبثوا أن يعودوا إلى ديارهم وقد زودوا بما يمكنهم من أداء مهماتهم هناك.. بعضهم من تركيا نفسها وبعضهم الآخر من بلدان آسيا المتناثرة في فجاج الأرض.. التقينا المنغولي والتركستاني والأذربيجاني والداغستاني والتركي.. وكان بيننا العراقي والمصري والإنجليزي والألماني. هاهي ذي الأممية الإسلامية التي تجمع أحفاد هؤلاء إلى أحفاد الفاتح وأبي أيوب في وحدة تنصهر فيها كل حواجز الجغرافيا والتاريخ، ولا يتبقى ثمة سوى العقيدة التي نسجت المظلة الكبرى في هذا العالم.. مظلة (لا إله إلا الله).. المظلة الوحيدة الباقية المنفسحة.. القديرة على مجابهة الأعاصير.. حيث تمزقت وتتمزق قبالة أعيننا في كل يوم خيام ومظلات صنعها وأقامها أناس ما كان بمقدورهم مطاولة تحديات التفكك والتلاشي والفناء... لأنهم ما عرفوا الله.

ثمة شاب جركسي يرتل آيات من القرآن بصوت عذب قدير على التعبير... لكأنه يعرف العربية منذ يوم ميلاده.. أي سر هذا في الذين يتعاملون مع كتاب الله؟

ويطلب الدكتور (شلبي) من شاب منغولي أن يرتل قليلاً.. يرغمك هذا على أن تتذكر هولاكو، وسقوط الخلافة العباسية، وضياع بغداد.. وأن تقارن بين ما فعله الأجداد وما يتوق إليه الأحفاد المنحدرون من الصلب نفسه، بقوة هذا الدين وسره المعجز...

يرتل المنغولي بعربية فصيحة ونحن نهمهم: سبحان الله، ونمعن النظر فيه بإعجاب.. ويقول المدير الشاب: يعود هؤلاء إلى ديارهم لكي يقوموا بأنفسهم بتعليم أبناء شعبهم المتغرب، المنفي في الأبعاد.. شيئاً عن كتاب الله وتعاليم رسوله عليه السلام.. بعدهم تجيء وجبة أخرى.. ويسأله شلبي: هل أنت متزوج؟ يجيب المنغولي الذي يبدو كما لو أنه لم يتجاوز العشرين من عمره: نعم.

- وهل لديك أطفال؟

- اثنا عشر.

- (يا بن الجنية. لم يدرك المنغولي نكتة شلبي.. لم يدرك أيضاً سبب ضحكنا العميق).

بعد لحظات، جاء ثلاثة أطفال في عمر الزهور.. من أصقاع شتى.. وراحوا ينشدون (طلع البدر علينا) لست أدري وأنا أنصت إليهم لماذا تذكرت، فجأة، النصل الحاد الذي يخترق جسدنا في البوسنة والهرسك هذه اللحظة.. لست أدري لماذا تذكرت كل أحزان المسلمين في العالم.. القتل.. والذبح.. والجوع.. والتغرب.. والحصار.. والعطش؟ ألأن أحد الأطفال ربما كان بوسنياً جيء به من هناك بعد أن ذبح أبوه وأمه وأخوته لكي يحتضنه الملجأ؟ أم لأننا جميعاً.. مسلمي القرن العشرين.. نعاني من القتل والحصار، والجوع، والعطش.. من التغرب الذي حدثنا عنه معلمنا العظيم عليه أفضل الصلاة والسلام؟

كافحت من أجل الإبقاء على دمعتين أطلتا من عيني، في مكمنهما.. لم أستطع في نهاية الأمر، وأنا أنصت للطفل البوسني الذي قطع من شجرته المتيبسة، هناك في سراييفو، وجيء به وحيداً، غريباً، لكي ينشد في مدرسة تركية نائية بعفوية وصدق وعذوبة: (طلع البدر علينا).

أي قلب يملك ذرة إيمان، بمقدوره أن يحبس دموعه عن الانطلاق؟

والتفت إلى إخوة الرحلة، فمن عجب أن أراهم يبكون بصمت هم الآخرون.. أتراهم كانوا يتذكرون الشيء نفسه؟

وشلبي الذي أضحكنا قبل لحظات، هاهو الآن ينزل عن كرسيه لكي يجلس على الأرض، ثم يزحف قليلاً صوب الطفل فيحتضنه ويقبله... كان شلبي يبكي هو الآخر.. وتذكرت ـ لست أدري لماذا ـ كيف أن دموعنا هذه، قد تكون ـ رغم عجزنا وقصورنا ـ جواز سفرنا إلى رسول الله ﷺ.. ووسيلتنا في أن نقف قبالته يوم الحساب الكبير... فنصرخ مستغيثين: (شفاعة يا رسول الله)...

النصل الحاد.. وهو يغوص في لحمنا حتى العظم.. ويزيدنا عذاباً.. أننا نرى المذبحة قبالتنا.. قبالتنا تماماً.. فلا نستطيع أن نفعل شيئاً..

في يوم ما.. موغل في التاريخ، زرع العثمانيون الإسلام في أعماق أوروبة، قريباً من حافاتها الغربية.. وعندما سقطت الخلافة تداعى الصليبيون الجدد لواحدة من أبشع عمليات التصفية العقيدية في التاريخ

البشري.. مجزرة أخرى كتلك التي شهدتها الأندلس على يد الكنيسة والسلطة ومحاكم التحقيق.

والآن فإن البوسنة والهرسك تتعرضان للسكين نفسها... إن الغربيين لا يريدون أن يكون في أوروبة موطئ قدم لهذا الدين لأنهم يعرفونه جيداً... عقيدة انتشارية حركية ترفض السكون.. تتأبى على الأسر في الحيز.. تتحرر من مقولات الجغرافيا والتاريخ وتنطلق لكي تعرش في الآفاق.. يدركون هذا جيداً.. لذا فإنهم قد يختلفون في كل شيء إلا في هذه... ولكن أقول في نفسي متصبراً.. إن للبيت رباً يحميه.

ولقد ظل هذا البيت على تقلبات التحديات والأحداث قائماً «فعلاً» بإرادة الله، حيث تداعت بيوت الآخرين وصارت حطاماً..

نغادر المدرسة لكي نقف لحظات عند القمة الخضراء المطلة على إسطنبول الأوروبية.. والجسر.. والبسفور.

واحدة من أجمل بقاع الأرض.. تزيدها لحظات الغروب الواني روعة وجلالاً. كان قرص الشمس الذي أصبح الآن برتقالياً موشحاً بخطوط حمراء بلون الدم.. ينحدر بهدوء خلف البحر. خلف الهضاب الغربية.. وراء العالم.. لكي ينغرز في مكان ما عند حافات إسطنبول.. مانحاً الأرض، والبحر، والروابي.. والأشجار، تلويحة الوداع.. حيث تتلامع عن بعد، كالعادة، مئات القباب والمنائر التركية ذات التكوين المعماري المدهش.. متجذرة في الأرض،

شاخصة إلى السماء. . . . شاهدة على أنه ما من قوة في الأرض قادرة على أن تجرد إسطنبول عن وجهها الإسلامي الأصيل.

هنا، وفي كل مكان من العالم، تتكور القباب وترتفع المنائر إلى فوق لكي تقول الشيء نفسه. . لكن هذه. . هذه التي ترفع الخطاب إلى أوروبة النصرانية. . هذه التي تتمحض بالنداء لله الواحد قبالة الشرك والتثليث. . هذه التي تحرس وتحمي إسلامية إسطنبول من أن تصير أندلساً ثانية. . هذه مسألة أخرى. . من ثم فإن إيقاعها المتوافق في فضاء إسطنبول الذي يستقبل الليل عند الحواشي البعيدة. . فيلتمع بالضوء. . والوعد، يقول أشياء أخرى أكثر بكثير من كل ما تقوله المنائر المبثوثة في الأصقاع النائية من عالم الإسلام.



كان يوم افتتاح (المؤتمر) يوماً مشهوداً.

ونحن ندلف إلى قاعة (مصطفى كمال) في قلب إسطنبول، كنا نشق طريقنا بصعوبة وسط حشود كبيرة من المشاركين كانت تملأ الشوارع الفرعية وتزدحم بها الصالات والممرات المفضية إلى القاعة؛ التي نصبت فيها أجهزة التلفاز لنقل الوقائع بالصوت والصورة معاً.

القاعة الكبرى نفسها، بأدوارها كافة، كانت قد غصت بالحضور. .

في يوم ليس ببعيد، كان المشاركون في المناسبات الإسلامية، والدينية، لا يتجاوزون العشرات عدداً. . . وكان معظمهم يدلف إلى

الستين أو السبعين من العمر. . أولئك الذين ظلوا على تقلبات الزمن، أوفياء لذكرى هذا الدين الذي جعل للأمة التركية مكاناً في العالمين. . بعدهم، وعلى حين غفلة. . وكالانكسارات الحادة التي تؤول إليها فجأة حافات الجبال العليا. . يجد الإنسان نفسه قبالة فراغ مخيف. . جيل الشباب يدير ظهره لما اعتبر ماضياً غير جدير بالالتفات وييمم وجهه صوب الغرب. . ما كان أحد منهم، بقوة الإيحاء اليومي المكثف والمتواصل. . يقدر على أن يفصل، أو يتصور على الأقل. . أن بالإمكان فك الارتباط بين عقيدة الإسلام الحركية الحية، برؤيتها المستقبلية، وقدرتها على التجدد والانبثاق. . وبين التاريخ.

إذا كان سلاطين آل عثمان قد مضوا فإن الإسلام نفسه مضى معهم. . . . هذه الرؤية المسطحة للظاهرة الإسلامية التي أريد لها أن تمر إلى عقول الأجيال التالية، وأن تتموضع فيها. .

أما الآن. . . فما الذي حدث؟

قاعة (مصطفى كمال) وهي تغص بالجيل الشاب نفسه الذي يعود إلى الطريق كما يعود الابن الضال إلى أمه وأبيه. . إنهم يجدون أنفسهم في مكانهم تماماً. . . في الحضن الدافئ. . في الوعد المبشر بحياة سعيدة في هذه الدنيا وفي الأبدية. .

بعد رحلة تغرب معذبة دامت خمسين عاماً. . هاهم الآن يرجعون. . أنظر على عجل قبل أن أجلس فتقر عيني. . واحدة من أسعد اللحظات في حياتي. . يخفق قلبي كطائر يريد أن يصفق وأن ينطلق. . ولكن إلى أين؟

أتمتم بيني وبين نفسي.. الحمد لله.. وأقول لجاري الأخ (أديب): انظر إنهم لا يجدون موطئ قدم.. فيرد مشبعاً باليقين: ألم أقل لك؟

عندما كنت في بلدي.. ولسنوات طويلة، ربما تتجاوز الأربعين عاماً، كنت أسمع عن تيار شاب يشق طريقه في الأناضول.. ما كنت بقادر على أن أتخيل حجم التيار.. وأن أسبر غوره.. اللحظة أرى.. أسمع. أسبر.. فتقر عيني..

وتتوالى الكلمات.. إضاءات مكثفة لجوانب من المسيرة التي قطعها الأستاذ عبر رحلته المضيئة الطويلة.. كان يطلقها من على المنصة، بمواجهة التلامذة تماماً.. قبالتهم.. متحدثون من شتى البلدان: من أمريكا من بريطانيا وألمانيا وإيطاليا.. ومصر وتركيا والعراق..

والآن يجيء دوري..

ما الذي يستطيع المرء أن يقوله في خمس دقائق عن رجل ما استطاع أن يقول كل ما عنده عبر خمسين عاماً.. ومئة وثلاثين مكتوباً؟

وللحظات عرفت كيف يخرج الإنسان من المأزق.. أن يتعامل مع المفاتيح.. مع نقاط الارتكاز في فكر الأستاذ.. ما الذي أراد أن يقوله بصوت عال.. وكيف جابه العالم والظواهر والأشياء والتحديات..

كنت كمن يعاني من العطش ويحظى بجرعة ماء لا تكاد تروي ظمأه وتبل ريقه.. لست في موضع المحاكمات العقلية.. قلت في نفسي: فهذه موعدها المؤتمر نفسه، أما الآن فإن اللحظة المدهشة تتطلب شيئاً آخر.. «مغايراً» تماماً... أن تنتزع من قلبك الذي يخفق بالحزن والمحبة.. بالعذاب والسعادة.. بالمرارة والعذوبة.. كلمات قد تمتص شيئاً من العناء... وقد تصل بينك وبين الجمهور فتكهربه.. وبذا تفتح الطريق للتيار المحتبس فيتسرب إلى الكل الذي يصير الآن واحداً... ولأنه كذلك فإنه قدير على تلقي السيال والإمساك بالكهرباء..

يا سعيد النورسي.... رفعت ندائي.. يا بديع الزمان... أيها المعلم والشيخ والأستاذ... قم.. قم لتر ما الذي صنعته يداك... البذار الذي غرسته يشق الأرض وينهض مستوياً على سوقه، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار.. قم لتر العالم الذي تحدثت عنه طويلاً.. قلعة الإلحاد الفكري في الشرق وهي تتهاوى فتصير حطاماً.. وقلعة الفساد الخلقي في الغرب يأكله الإيدز والمورفين.. قم لتر تلامذتك يملؤون السهل والجبل.. تغص بهم الطرقات والساحات.. ويملؤون مقاعد الدراسة والجامعات.... يكفيك شرفاً أيها الأستاذ أن تغادر الدنيا والشموع التي أوقدتها في حلكة العالم.. لا تزال تشتعل لكي تضيء الطريق للمدلجين في الظلمات..

ونحن نغادر القاعة يتقدم إليَّ بعض الشباب متسائلين بعتاب: ماذا فعلت؟ أجفل بعض الشيء، ولكن أحدهم ما يلبث أن يقول: لقد

جعلتنا نبكي.. فأقول له: إنه على أي حال الثمن الذي يتحتم علينا جميعاً أن ندفعه... فليس في مقدور أحد أن يتحمل لمفرده.. هذا كله.

في دار الضيافة (السليمانية) تحلقنا حول المناضد جماعات جماعات.. تناولنا طعام العشاء.. وجرتنا الأحاديث إلى كل مكان.. ونودي على المشاركين واحداً.. واحداً.. يتسلم أحدنا شعار المؤتمر المنقوش بعناية على النحاس الأصفر.. يلقي كلمة شكر وتقدير، ثم ما يلبث أن يرجع لكي يفسح الطريق للذي يليه..

ما يلفت الانتباه أن كلاً منا تسلم شعاراً... يحمل اسمه بالذات بابتسامة عذبة من الأخ الدكتور (فارس قايا) مدير مؤسسة الثقافة والعلوم التي نظمت المؤتمر..

مؤتمرات عديدة شاركت فيها، كنا نتسلم شعارها الذي يحفر على نحاسه عنوان المؤتمر وزمنه، ومكانه.. أما هنا فإن أسماء المشاركين أنفسهم حفرت على النحاس.. جنباً إلى جنب مع العنوان والزمان والمكان.. قلت وأنا أتسلّم الشعار فتقع عيني على هذه الخصوصية التي يعرف الأخوة في تركيا كيف يعطونها المساحة التي تستحقها: هذه أغلى هدية تسلمتها في حياتي.. وأنا بالتالي أعجز عن الشكر! تخونني الكلمات!

دفق المحبة النورسية يغمر المكان.. وثمة نسمات مترعة ببرد الليل القادم تلفح الوجوه بحنان.. وموشح تركي يتدفق كالشلال من مكان

ما في الدار... ما الذي بمقدور المرء أن يفعله سوى أن يرتشف لحظات الوفاق الفريد بين الروح والحس والوجدان.... لحظة لحظة.. متخففاً من كل صنوف المعاناة والعذاب.. متحرراً من كل صيغ التعاسة التي تكاد تغرق الإنسان في عالم الفصام النكد بين نداءات الحياة الدنيا وأشواق الروح.

٨

عذبة رائعة كانت الرحلة إلى (بورصة) ليس فقط لأننا أوغلنا أكثر فأكثر في جبال تركيا وبحارها وأشجارها وعيونها وروابيها الخضراء، وصرنا جميعاً... أصدقاء للنهر والبحر والشجر والنبع والشلال.. بل لأن الأخوة النورسيين أنفسهم الذين جاؤوا معنا إلى (بورصة) أو الذين استقبلونا هناك واصطحبونا ليومين، كانوا كالأشجار والعيون والجبال والبحار والأنهار.. يعلمونك كيف تتوافق مع نفسك.. مع الآخرين.. مع كل شيء من حولك..

يبدو لي أن (الوفاق) هذا، هو أغلى ما في الوجود.. وأن (الإسلام) الذي يشتق اسمه من هذا المعنى العزيز نفسه، إنما يريد أن يمنحنا هذه الهبة القيمة التي لا تقدر بثمن.. وأن الرسول المعلم عليه أفضل الصلاة والسلام، ما كان يريد في نهاية عمر حافل بصنوف المشقة والمرارة والعطاء سوى أن يضع أمته، والبشرية كلها، في نهاية الأمر.. على الطريق الصحيح، منهياً عصر السبل المتفرقة، المعذبة، التي استنزفت الإنسان وما تزال.

البداية كانت في حدائق (أمركان) عند ضواحي إسطنبول.. كان الصباح مشرقاً جميلاً.. فوجئت وأنا أدلف إلى المكان أنه يضم جناحيه على حشود من الأشجار البرية العالية، وأن كل واحدة منها تختلف عن الأخريات... مهرجان مثير لإبداعية الله جل في علاه.

أشجار متفردة، مهندسة بعناية: الأوراق والأغصان والجذوع والألوان السخية المنتشرة عند حافاتها بغير حساب.. بعضها.. كثير منها.. أراه لأول مرة.. لم أجد شبيهاً له في بلدي، أو أي مكان آخر من العالم... في المسافات بين شجرة وأخرى كانت يد الإنسان قد تدخلت لكي ترتب الحلقات والسنادين المترعة بالأزهار، والتي تضفي بعروضها اللونية السخية.. بعبقها الذي يتصاعد مع تصاعد دفء الشمس.. على (أمرٍ كان) نكهة عذبة لا يتسنى نسيانها بسهولة.

تناولنا الفطور هناك والتقطنا صوراً تذكارية.. ثم ما لبثنا أن عبرنا جسر البسفور الطويل صوب الضفة الأخرى.. بعد نصف ساعة كنا ندلف إلى أحد المراكب لكي يجتاز بنا جانباً من (مرمرة) مختصراً الطريق البري الطويل.. حافات البحر الشرقية تلوح للمسافرين بقراها الأنيقة وخضرتها الواعدة...

أما الحافات الغربية فتصعب رؤيتها، حيث يمضي البحر بعيداً باتجاه الغرب.

صلينا الظهر في مسجد صغير أنيق، ثم انطلقنا بالسيارات صوب (بورصة). . وصلناها عصراً. . مدينة كبيرة مترامية الأطراف. . . لم يكفها أن تلتهم السهل الشرقي حتى مضت غرباً. . لكي تتسلق المرتفعات المطلة عليها. . ودائماً يصير الجامع. . الموغل في ذكريات العقيدة والتاريخ المتشكل على يد السلاطين الكبار. . الذين كانوا يحلمون بفتح أوروبة ومواصلة الطريق الذي بدأه معاوية وسليمان وهارون الرشيد. . دائماً يكون الجامع هو مركز الثقل في معمار المدن التركية ونقطة الجذب والطرد فيها. . . أشار أحد الأخوة ونحن نجتاز المدينة إلى بعض هذه الجوامع: عثمان. . أورخان. . وبايزيد. . . تثوي أجسادهم هناك ومن حواليهم أجداث الأبناء والأحفاد. . . لكأنهم أرادوا أن يبدؤوا من الجامع وينتهوا إليه. . . متشبثين في حياتهم ومماتهم بالمكان الذي جعلهم سادة على العالمين. . . ومن أجل أن يكونوا أوفياء، جعلوا منطلقهم إلى العالم من الجامع، ثم عاد كل واحد منهم بعد عمر طويل من الجهاد الدامي لكي يثوي هناك. .

تذكرني القبور المزدحمة للأبناء والأحفاد. . المتحلقة حول قبور الآباء والأجداد. . بلوحة سريالية، لا أدري لماذا. . . ربما لأنني وجدت نفسي. . بشكل من الأشكال. . في حالة حلم من نوع ما. . . . حلم يتأبى على التحليل المنطقي، ويستعصي على الأسباب.

٩

في صبيحة اليوم التالي نركب (التلفريك) الذي يصعد بنا على السلك الرفيع صوب الأعالي.. ثمة خوف من المرتفعات الشاهقة قادم إليَّ من مغامرة خطرة زمن الطفولة.. يجعلني أتشبث أكثر فأكثر.. بحافة المركبة وهي تئز بثقلها ميممة صوب القمة التالية... يقول لي أحد الأخوة.. انظر إنها لوحة رائعة..

على مضض أحدق إلى أسفل.. الوادي العميق أصبح أكثر نأياً... وقعره البعيد.. لم يعد يرى.. والشيء الذي يسرق النظر، كما يقول الفنانون.. الشيء الذي يضيع معه التوجس والخوف.. هو رؤية أوراق الأشجار الكثيفة من فوق.

برؤية طائر، كما يقول الفنان أيضاً... أطل على الغور البعيد.. مهرجان لوني لعالم جميل يدلف إلى الخريف.. يتداخل في أوراقه الكثيفة وعلى صفحاتها المتشبثة بالبقاء كل ما يعرفه الإنسان من درجات لونية تبدأ بالأبيض وتنتهي إلى الأخضر العميق، مجتازة الأصفر والبرتقالي والناري، والأحمر والبني بتداخل مدهش تغيب فيه الفواصل والحدود.

نصعد إلى قمة أكثر ارتفاعاً... في (تلفريك) آخر... نغادره بعد قليل.. قمة مستوية تمتد فيها المساحات.. هاهنا أيضاً لا يحار المسلم أين يصلي.. المسجد الأنيق، الذي تلقى لمساته الأخيرة.. يناديك... أقول للأخوة دهشاً: الدين والدنيا.. أشير إلى الجامع

الأنيق القريب من السماء وإلى الأرض المفروشة بالزهور والحشائش البرية.. إلى الأشجار المتناثرة على غير انتظام وإلى العوائل السعيدة.. والأطفال... والصبيان وهم يتقافزون هنا وهناك.. وثمة روائح الشواء التي تفغم الأنوف وتثير الشهية ترتفع من مناقل الفحم المشتعل... والمبعثرة في كل مكان...

بورصة وإسطنبول قبلها.. علمتنا أشياء كثيرة... هاهنا، اللحظة، أجدني في حالة من الوفاق النقي كالبلور. الوفاق الذي لا يكدره شيء بين أفراح الروح وتوقها للصعود أكثر فأكثر إلى فوق.. وبين نداءات الحس التي تجد في القمة العالية القريبة من السماء.. في الخضرة الواعدة.. في الأشجار والينابيع.. في الشمس الوانية والسحب المبعثرة التي تمتص أشعتها بشغف.. في القمم المغطاة بالثلج.. في الناس... والحركة وبريق الأشياء.. تجد نفسها تماماً.. فتلتحم بالوجود أكثر فأكثر.. تتعاشق معه.. وتصير وإياه شيئاً واحداً..

يختار الأخوة مكاناً جميلاً نتحلق فيه على المنضدة التي صفت عليها بعناية أطباق التين والزيتون.. إلى قريب منا جيء بمنقل كبير أشعلت فيه النار.. بعد لحظات كانت رائحة الشواء تختلط بعطر الأرض الرطبة.. والأزهار البرية... وأوراق الشجر المتساقطة بهدوء.

يريدون، كعادتهم دائماً وكما علمهم رسول الله عليه السلام.. أن يقول أحدنا شيئاً قبالة نعمة الله، ونحن نوشك على الانتهاء من

غدائنا.. كان شلبي وأصحابه قد رحلوا قبل يومين عائدين.. يجيء الدور علي هذه المرة، فلا أجد أعذب وأجمل مما كان يقوله رسول الله ﷺ إثر كل طعام مخاطباً المضيفين: (أكل من طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة وذكركم الله فيمن عنده).. دائماً ومن خلال أشد الممارسات كثافة وحسية، كان النبي المعلم يذكرنا كيف تكون المفردة اليومية.. الملذة المتوافقة مع الخلق والتكوين وطبائع الأشياء.. طريقاً للصعود إلى فوق.. ليس ثمة أي تناقض أو ارتطام.. الهسيس القاسي في أعماق النفس البشرية المعذبة.. الممزقة، لا تجده هنا... بينما تصير متع الحس في الأديان المحرفة خروجاً على الناموس، فيتألم الإنسان ويوغل في شرايينه الإحساس الآثم بالخطيئة..

هنا... الدين السمح المتوافق مع كل شيء جميل ممتع عذب في هذا العالم، يقول شيئاً آخر ويعطي شيئاً آخر، هاهنا... قبالة المائدة نفسها، تصلي الملائكة، ويذكر الله جل في علاه.. عند الملأ الأعلى.. كل أولئك الذين شبعوا فحمدوا الله.

لست أدري أن كان قد انتاب الآخرين الإحساس نفسه الذي يمسك بخناقي بين الحين والحين فيعذبني.. هذا التناقض الحاد بين ما أراده الإسلام وبين ما تمارسه كل الأديان المحرفة والمذاهب الأخرى.. هذا التقابل بين الوفاق والتبعثر.. بين الانسجام والارتطام... بين ما يجب أن يكون وما هو كائن.. يتشكل في نقطة ما من وجدان

المؤمنين، صوتاً.. معذباً.. يئز في الأعماق.. ثم ما يلبث أن يدوم مصعداً إلى فوق متحولاً إلى صرخة مكبوتة تريد أن تغادر الأسر، أن ترفع شكواها قبالة الكون والعالم والوجود، مذيبة كل عذاباتها... وتمنياتها.. في تساؤل طويل مديد: لماذا؟

ينحدر بنا (التلفريك) إلى بورصة كرة أخرى.. كنا على موعد معها.. هكذا تبين لي فيما بعد.. فعندما تصير في العنفوان.. تنسى بدايات الأشياء ونهاياتها.. تنسى حتى المواعيد المضروبة في وقت ما بينك وبين المدن التي أحببتها..

أما الآن.. اللحظة.. فإن السيارات تصعد بنا إلى شرايين بورصة الغربية موغلة في المرتفعات.. متعرجة متماوجة.. تغيبك حيناً عن السهل الفسيح الممتد إلى ما لا نهاية.. ملاحقاً مشرق الشمس.. ثم ما تلبث أن تطل ثانية على المدى المفروش قبالتها تماماً... بالبيوت والأسواق، والشوارع والناس..

سيارات أخرى كثيرة كانت تصعد هناك.. في الأصيل.. حيث يوم العطلة الذي ينطلق فيه الناس ليروا ويسمعوا ويذوقوا... لكنها جميعاً.. لم تكن كسيّارتنا.. سيارة الأخ (س) عضو مجلس الشعب في بورصة.. كنت أجلس إلى جواره وهو يقود سيارته.. وإلى الخلف جلس الأخ محمد رشدي.. مكتوب عليه أن يذوب مثلي في الصوت التركي المنبعث من جهاز التسجيل... شفاعة يا رسول الله.. كرة أخرى الأخ (س) يعرف ماذا يختار... أكاد وأنا أنصت إليها أنطوي على عذابات الدنيا.. على تشرد المسلم وغربته في هذا العالم..

تمنحني وهي تتدفق عذوبة يصعب نقلها للآخرين.. يستعصي وصفها على الكلمات.. لا تجيء من قوانين الفيزياء.. ومعادلات السلم الموسيقي.. إنها هنا تتدفق من فوق.. من مكان ما لا أدري أين تتشكل بداياته القصية وأين تنبجس ينابيعه الأولى... أفي الروح الموغلة في المجاهيل.. أم في السموات القصية؟! أتذكر من يتوجسون خيفة من الموسيقا.. أعرف تماماً.. لماذا.. إنها في الحالات الاعتيادية تفصلهم عن دفق الإيمان.. عن لحنه الباطني المتفرد الذي يرفض أن يشاركه صوت آخر.. عن التوافق العفوي مع السنن والنواميس والأشياء... وتدخل... كشيء نشاز بينهم وبين العالم.. لذلك هم يخشونها.. ولعلهم أيضاً.. يحرمونها، وهم في هذا محقون...

أما هنا، فإن الأمر يختلف، إن الموسيقا نفسها تصير نداءً يضعك في قلب التوافق بين الظواهر والأقطاب.. تمنحك مكاناً.. يعلو على الأشياء العابرة المنغمرة.. تسلمك مفاتيح الطريق إلى الكون، حيث ينصهر كل شيء في هذا الوجود في إيقاع متوحد.. في نبض يخفق بإيمان من نوع صاف كالبلور.. يشع بالحزن والفرح... بالمحبة والثورة.. بالعطش والارتواء.. وبكل الثنائيات التي تنسجم هاهنا... وتتناغم لكي ما تلبث أن تخرج صوتاً عذباً متوحداً ينطوي على كل النداءات المستفزة للوجدان الإيماني في هذا العالم.

والشريط يدور.. الصوت العذب ينادي الله الواحد جل في علاه.. والسيارة تمضي مصعدة، مجتازة الطرق المتعرجة والمنحنيات

الصعبة... تقف لدقائق عند شجرة حور عمرها مئات السنين، جذعها الهائل يغور في طبقات الأرض، أغصانها المتعرجة الممتدة بعيداً.. بعيداً.. جداً... تغطي مساحة واسعة من الفضاء فلا تنكسر ولا تميل.. معجزة الخلق هذه الشجرة.. نتعلم منها كيف يكون التوازن العجيب، وكيف تمضي السدم والنجوم في رحيلها الكوني دون أن تقع إحداها على الأخرى.

ما كنت أدري إن كان (محمد رشدي) يكافح الدموع بصمت مثلي... فأنا أعرفه جيداً لا يطيق الصبر. وهو كلما سمع تأوه الناي، صرخ: إنه يحترق... ولكني أستطيع أن أجزم أننا سوية إزاء النداء الملتاع للصوت وهو يدوم مصعداً باتجاه نقطة ما في الملكوت.. صارخاً.. شفاعة يا رسول الله.... أجزم أنه كان يبكي بصمت مثلي.

للحظات خشيت أن يراني الأخ (س).. ولقد رآني فعلاً... ولكني أقول في نفسي لا بأس، فهو الآخر يعرف جيداً.. هو الآخر اكتوى قبلي وقبل رشدي بالنار... ونحن جميعاً وأي مؤمن في الدنيا، عندما يضعه الصوت المتلوي الحزين المصعد من أعمق غور في الوجدان البشري، قبالة النبي المعلم، صارخاً: شفاعة يا رسول الله.. لا بد أن يبكي..

إن يوم الحساب عسير... وخطايانا كثيرة كالجبال.. وقلوبنا أكسدتها الأحزان فعلاها الصدأ.. وهي اللحظة تنتفض كعصفور بلله القطر.. متشبثة، في يوم الهول الآتي، بأذيال النبي منادية إياه بلهفة وتوجع: شفاعة يا رسول الله!!

١٠

الدمع هو المطهر

رعدة الحزن الموغل في الروح جواز السفر إليك

يا نبي المنفيين والمعذبين والغرباء

الدمع يذيب الآثام والخطايا

يزيل الحواجز ويلغي المسافات بيننا وبينك

فنهتف، متوحدين.. منتظرين اليوم الذي سنهرع فيه إليك لكي نرفع نداء التوسل بين يديك

شفاعة يا رسول الله!

۞ ۞ ۞

عشرات السنين التي عشتها تبدو الآن وكأنها هباء

محبتك تعمر قلبي.. تسري في أوصالي.. فتمنحني الحياة..

ينتفض العقل والقلب والحس والوجدان كما لو أنها تبعث اللحظة

الآن... الآن فقط... أحس أنني أحيا

أنت الذي تمنحني الدفء والفرح

تأخذ بيدي من شد الأرض وعتمة الطين صوب الأعالي، حيث تقطر السموات بالنور فتسكر الروح منتشية، وهي تتلقى الدفق الآتي من فوق

أتواجد يا رسول الله

أنتفض عشقاً وأكاد أذوب

أضع هذا كله.. أصهره في نداء ينزف من القلب المثخن بالجراح:

شفاعة يا رسول الله!

في إسطنبول... في بورصة.. وأنا أستمع موشحاً.. تركياً قبالة شجرة الجنار الباسقة

إزاء كل الأشياء الجميلة في هذا العالم

نهض (النورسي) لكي يقف قبالتي

لم أستطع أن أتبينه للوهلة الأولى

شيئاً «فشيئاً».. أتلقى صوته المتهدج.. يتماوج عميقاً «مؤثراً»

يشير بكلتا يديه إلى الأنهار والينابيع والشلالات والجبال..

اللغة التي يحكي بها ما كانت تركية ولا عربية

إيقاع متفرد عجيب كان يجتاز غشاء القلب ويمضي إلى الأعماق

تبين لي وهو يشعل النار هناك

أنه كان يجأر ملتاعاً: شفاعة يا رسول الله.



في جوامع الفاتح وأحمد وسليمان

يتعالى النداء نفسه.. الوعد نفسه.. العشق نفسه..

هذه الأصوات التي تذوب وتذيب

آه من العشق الكوني الذي تعلمته هناك

أن تصير والورد والشجر شيئاً «واحداً»

أن تتعاشق مع الأنهار، والبحار، والوديان والجبال..

أن تسبح معها بحمد الله..

سأحملك معي يا إسطنبول وأهديك لبلدي

ليس ثمة أغلى من هذا يمكن أن يقدمه العشاق لمن يحبون!

أحمل معك كل ما انطبع على غشاء القلب وأوغل في مسارب الروح والوجدان

أشياء كثيرة عرشت هناك

ولكن ليس أبداً. كذلك الصوت العذب

الصوت المتلهف.. المترع حزناً وهو يتلوى متوجعاً في موشح تركي:

شفاعة يا رسول الله!



أعطيتموني المحبة أيها النورسيون

فماذا أعطيكم؟

كل ما سأقدمه لكم لن يكون كفاء ما أعطيتموني، فماذا أعطيكم؟

في الطريق إلى (كوزلجة) استمعت لأول مرة إليه..

بعدها ونحن نتسلق روابي (بورصة) سمعته مرة أخرى.. فبكيت

لن يكون بمقدور أحد يملك قلباً إلا أن يبكي

يهتز وجداً وهو يتلقى لوعة الصوت المتشكي من أعماق الروح

فما يلبث أن يتصادى في الفضاء الكوني الذي لا بدء له ولا انتهاء..

أن يدوم مع الشمس والقمر والنجوم... ويتماوج في دورة الأفلاك الكبرى

هناك في الأماكن القصية وهو يردد:

شفاعة يا رسول الله

❀ ❀ ❀

رجعت إلى داري فلم تعرفني زوجتي ولا أهلي ولا أولادي

كنت قد هزلت.. شحبت كثيراً..

الوجد كان قد أكلني.. المحبة اعتصرتني

الحزن العميق طرد من قلبي كل تعلق بالأشياء... والرغبات والموجودات..

كان يؤلمني أنني لا أستطيع أن أقول لهم ما بي..

ما يضنيني أكبر من أن تحمله إليهم الكلمات..

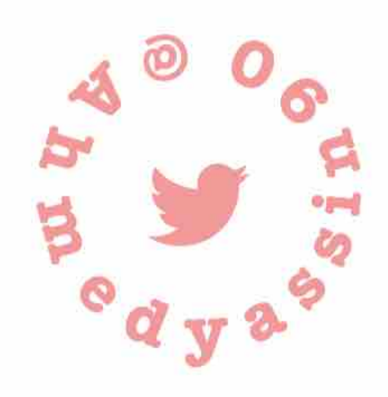
لقد ذوّبني العشق.. انظروا..

هاهو ذا يحيلني شبحاً.. لا يكاد يرى..

فأهتف: لقد برحني الوجد كما لم يبرحني شيء في هذا العالم...

ترى هل سألتقيك مرة أخرى؟

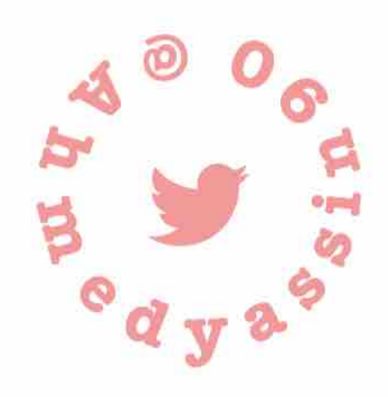
 


@Ahmedyassin90



الرحيل

إلى الخرطوم


@Ahmedyassin90

١

تنطلق الطائرة السودانية مغادرة عمان، مبتدئةً باسم الله ودعاء السفر الذي علمنا إياه رسول الله ﷺ يتردد في جنباتها؛ فيما لم نعتده في معظم الطائرات المحسوبة على جغرافية الإسلام.

أغمض عيني قليلاً بعد عناء يومين من السفر البري القاسي بين الموصل وعمان.. كنت قد اضطررت لترك الحافلة البطيئة في منتصف الطريق خشية أن يفوتني موعد الإقلاع.. استأجرت سيارة صغيرة أكثر سرعة لكن إطاراتها كانت معطوبة، وبين حين وآخر كان أحدهما ينفجر فأنجو أنا والسائق من النتيجة التي قد لا تحمد عقباها.. مرة كانت شاحنة كبيرة تندفع وراءنا.. على بعد أمتار... بسرعة كبيرة.. لحظات ويجد سائقها نفسه على حافة سيارتنا التي انفجر إطارها وراحت تتأرجح متباطئة.. كادت الشاحنة أن تضرب السيارة وتسويها بالإسفلت، ولكنها بإرادة الله انحرفت في اللحظة الأخيرة.. فنجونا.. كنا نقطع مئات الكيلو مترات دون إطار احتياطي.. وكنت أقول في نفسي: لو أن انفجاراً آخر يحدث فإن موعد الطائرة التي ستنطلق صبيحة الغد سيفوتني بكل تأكيد.. ولكني أخيراً.. وصلت عمان بحمد الله في أعماق الليل.

في صباح اليوم التالي اتصلت بالسفارة السودانية فأعلموني بأن تأخيراً اضطرارياً سيغير موعد الإقلاع حتى الساعة الثانية عشرة

مساء... لقد أعطاني هذا فرصة جيدة لإنجاز أعمالي في عمان، وتجاوز شد الأعصاب الذي طالما أرهقني في معظم رحلاتي..

تلفاز الطائرة يعرض برامج عن السودان.. أرضاً وشعباً وتجربةً وتاريخاً وتراثاً.. أجدني للحظات في بيئة إفريقية يلتقي فيها العربي بالإسلامي بالزنجي بتوافق هارموني لا نشاز فيه.. كنت قد قرأت عن هذا كثيراً.. ولكني الآن أراه وأحسه.. الآن أمني نفسي بأني سألمسه وأعيشه.. واحدة من معجزات هذا الدين، الذي قدر على تحقيق الوفاق الصعب بين الثنائيات المتعارضة تحت مظلته، وبقوة روحه التي لا يقف أمامها شيء، يلتقي الأضداد فيصيرون بقوة الكلمة التي أريد لها أن تعيد صياغة العالم بتناقضاته.. ومتغيراته، أخوة، ويتوحدون على الود والتعاون والمحبة.. يلتقون على المنطلق والمصير.. ومع ذلك فهم يحتفظون، كل في دائرة إرثه التراثي وتاريخه وأذواقه وعاداته، بخصوصياتهم دون أن يقول لهم أحد: لم تفعل هذا؟

وأقول في نفسي، والأفكار تنساح بي بعيداً باتجاه المستقبل المنظور: سيجيء اليوم الذي يجد فيه غير المسلمين في هذا البلد الطيب أنفسهم يلتقون مع مواطنيهم المسلمين.. مع إخوانهم المسلمين، غير متخلين عن دياناتهم، ولكنهم مدركون حتى آخر خلية في دمهم، أنهم لن يجدوا في العالم كله مظلة، كمظلة الإسلام، يمكن أن تعطيهم كل ما يريدون... أن تحمي خصوصيتهم، وأن تمنحهم الأمن والأخوة والمحبة تحت خيمة الله الرحيم، رب البشرية جمعاء.. سبحانه.

كنت قلقاً كعادتي وقد تغير موعد الإقلاع اثنتي عشرة ساعة عن المعتاد ألا أجد من يستقبلني في المطار. . . فأضيع. . هذه أول مرة أزور فيها هذا البلد الشقيق. . لم يكن أمامي هذه السنة سوى فرصة واحدة، فاعتذرت على مضض عن دعوتين أخريين من السودان نفسه. . . إحداهما من مؤسسة بحوث الإيمان والثانية من مؤتمر حقوق الإنسان. . وقبلت الثالثة من جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية لأنها جاءت متزامنة مع إجازتي الربيعية في جامعة الموصل. . كنت أتمنى أن ألبي الدعوة الأولى فإن هناك الكثير مما يمكن قوله، وأن أشارك في الثانية. . لكي أرفع صوتي جنباً إلى جنب مع أصوات كل الخيرين في هذا العالم في مواجهة اللعبة التي تمارسها الصليبية الغربية بزعامة أمريكا ضد عالم الإسلام وأحلامه باسم حقوق الإنسان. . أتذكر استنتاج المؤرخ البريطاني المعروف (سير توماس أرنولد) بعد أربعين سنة من بحثه عن (الدعوة إلى الإسلام) من أن تاريخ هذا الدين لم يشهد عبر ثلاثة عشر قرناً حالة واحدة أكره فيها غير المسلم على اعتناق الإسلام. . . أتذكر أيضاً حشود الشهادات التي تدفقت عبر عشرات المؤلفات لباحثين من الشرق والغرب. . من أن المسلمين اليهود والبوذيين والزرادشتيين والصابئة غيرهم، وجدوا تحت مظلة الحكم الإسلامي أقصى حالات الوفاق وتكافؤ الفرص، وانفتحت أمامهم المجالات للتحقّق الذاتي والديني والاجتماعي والثقافي والاقتصادي فيما لم يشهده تاريخ أي أمة أخرى في العالم. .أتذكر ما حدث في أمريكا حيث يصير حتى الحزب الشيوعي (الأممي) الذي

يرفض التمييز في إطار كفاحه الطبقي. . حساساً تجاه الأسود والأبيض. . . فلا يسمح لأديب شيوعي (كريتشارد رايت) شد الرحال إلى نيويورك للمشاركة في مؤتمر شيوعي هناك، أن ينزل في الفندق المخصص للمشاركين، وأن عليه أن يبحث عن مكان آخر لأنه زنجي. . . فيضطر للمبيت في أحد المطابخ البائسة ثم يغادر المكان في صبيحة اليوم التالي لاعناً الأممية والشيوعية التي لا تتجاوز حدود الشعارات وتنسى الإنسان.

حقوق الإنسان. . . . فمن الذي جعلها لأول مرة. . وربما لآخر مرة في التاريخ. . أمراً مشهوداً بقوة تعاليم كتاب الله وسنة رسوله عليه أفضل الصلاة والسلام؟ أفلا تكون مفارقة تدعو إلى السخرية أن يقوم المعسكر الغربي المترع حتى النخاع بالتمييز العنصري، بحملته هذه ضد التجربة السودانية لكونها تجاوزت مطالب حقوق الإنسان؟

كلمة حق يراد بها باطل، قلت في نفسي وأنا أرتشف الشاي وأطل من النافذة، فأرى الأضواء المبعثرة تنتشر متباعدة لا تكاد ترى وسط ليل إفريقية العميق. . .

في تاريخنا أتيح حتى للعروق المستعبدة أن تشكل دولاً. . كما حدث زمن المماليك. . وفي أمريكا لم يتح لزنجي أن يصل الرئاسة. . وإلى وقت قريب لم يكن يسمح للسود أن يدخلوا مطاعم البيض وفنادقهم ومنتدياتهم. . . وهاهي ذي أمريكا تقفز على ممارساتها النقيضة لأبسط حقوق الإنسان، لكي تلاحق باسم هذه الحقوق

المدعاة، تجربة لا تنوي لمواطنيها وجيرانها والعالم كله إلا المحبة والانسجام والوئام.

أشياء كثيرة قيلت في مؤتمر حقوق الإنسان الذي فاتني حضوره مكرهاً وأشياء كثيرة كان يمكن أن تقال في ندوة مؤسسة أبحاث الإيمان؛ التي جعلت نصب عينيها إعادة الوفاق الضائع بين العلم والإيمان... وهاهي ذي الدعوة الثالثة من جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية تجيء في وقتها تماماً، فأهرع لتلبيتها وأنا أحس بسعادة غامرة لأنها ستتيح لي أن أرى السودان، وأن أوغل في إفريقية لأول مرة في حياتي.. كنت قد قرأت الكثير عن هذه القارة التي تعد بسخاء.. وفرض علي مؤلفي المتواضع (ملامح مأساتنا في إفريقية) أن أجوس بعض الوقت في جغرافيتها وتاريخها الحديث والمعاصر.. ولكن وكما يقول المثل ليس من جرب كمن لم يجرب.. وها أنا ذا بعد أقل من ساعة سأجد نفسي على أرض السودان الإفريقية.. التي طالما حلمت بأن ألتقيها وجهاً لوجه.

مشكلتي أنني قلق أكثر مما يجب.. وكلما اقتربت الطائرة من هدفها حيث بدأت أضواء الخرطوم تتلامع من بعيد، ازددت قلقاً.. الموعد تغير تماماً اثنتي عشرة ساعة.. فمن سيستقبلني في المطار ويدلني على الطريق؟

فجأة.. أسمع صوتاً من مكبر الطائرة يناديني.. يطلب مني الوقوف للتعرف علي.. أنهض قائماً.. فإذا بشاب سوداني يتقدم إلي

مصافحاً: أرحب بك باسم اتحاد الطلبة السودانيين، وسأصحبك وعدد من الضيوف إلى فندق الهيلتون إن شاء الله.

أشد على يده بدوري فها هو ذا ينقذني من حيرتي.. وكما توقعت فقد انتظر المستقبلون طويلاً حتى يئسوا.. فعادوا من حيث أتوا وذهب بي الأخ (عبد الرحمن) إلى الفندق لكي أقضي ليلتي هناك..

في صبيحة اليوم التالي أتلقى مكالمة هاتفية من عدد من إداريي جامعة القرآن الكريم.. قالوا إنهم سيمرون بي بعد دقائق لاصطحابي إلى فندق القرية الخضراء حيث ستكون إقامتي..

كانت وجوههم تنضح بشراً وقلوبهم تفيض بالمحبة.. سيتضح لي أكثر فأكثر.. أن السودانيين كالأتراك تماماً.. يتمحضون للمحبة.. وأن الذي يرجع من ديارهم، طال مكوثه هناك أم قصر، قد ينسى كل شيء إلا هذه المحبة!!

٢

قمنا بجولة سريعة في جوانب من الخرطوم وأم درمان وتوجهنا أولاً إلى الجامعة التي دعتني.. عن بعد كانت قبتها المتفردة الكبيرة بغطائها المعدني الذي ينطوي على آلاف المخروطات، ومنارتها البديعة الصاعدة كالسهم.. إلى السماء.. بطاقتي دعوة، وقلماً مشهوراً إلى فوق يذكر الإنسان بكلمة (اقرأ) التي ابتدأ بها الوحي الأمين رحلته الطويلة مع النبي الأمي عليه أفضل الصلاة والسلام.

أخي الدكتور أحمد علي الإمام.. مدير الجامعة، يعرف كيف يتلقى إخوانه بالأحضان.. إن له، كما للأخوة السودانيين جميعاً، طريقة متميزة بالترحيب: أن يأخذوا أخوتهم بالأحضان.. مربتين بمحبة تتدفق عفوية عذبة من القلب، وتشعر بها وهي تسري في أيديهم وأكفهم لكي تنقل خطاب الروح إلى الآخرين.. الأحضان الودودة نفسها.. المترعة بالبشاشة والمحبة في الله التي طالما تعاملت معها وكدت أمسك بها في إسطنبول.

عبر لحظات مترعة بالإحساس نفسه التقيت الأخوة المعاونين والعمداء وعدداً من الأساتذة.. لا تمل من الجلوس معهم.. كان كل واحد منهم منجماً تنسرب في حجارته الكريمة عروق من جمال الروح يصعب نقلها بالكلمات..

اصطحبني بعضهم إلى فندق (القرية الخضراء).. لم يكن كبقية الفنادق التي أعرفها.. الإدارة وصالة الاستقبال في مكان.. والمطاعم والكافتيريا في مكان آخر.. أما الغرف فمبعثرة هنا وهناك.. منفصل بعضها عن البعض كأنها (فيلات) منعزلة تحس وأنت تدخلها أنك في منزل مستقل وليس في فندق مما يعرفه الناس.. وبين هذا كله تنتشر الحدائق والممرات والبحيرات الاصطناعية.. بينما تركت مساحات أخرى تنمو وتتكاثر وتزهو على هواها.. لكي تذكرك بإفريقية كما أراد لها الله سبحانه أن تكون.. وأنت تجتاز الممرات في طريقك إلى غرفتك قد تلتقي بسحلية خضراء أو سمراء تحدق فيك بألفة ثم ما يلبث

طبعها الإفريقي الحار أن يغلب عليها، فتنفلت من بين يديك هاربة لكي ما تلبث أن تغيب في الأحراش.. على بعد خطوات فيما وراء الحاجز الترابي يمتد النيل هادئاً غنياً عميقاً وقوراً.. هذا النهر الذي انطوت قصته في ملحمة الخلق على ألف أسطورة وأسطورة.. هذا الذي منح بركته قبائل وجماعات وشعوباً وأمماً.. لا يزال منذ آلاف السنين يقوم بالرحلة نفسها.. ويعطي للسودان من نفسه ما لا يعطيه لأمة أخرى في الأرض... هذه القارة الموصولة من حافات الاستواء حتى حدود مصر عند مناطق النوبة تجعل السودان أرض الوعد القادم وسلة لغلال العالم الذي يتضور في أصقاع أخرى جوعاً... وينتظر المخلص... لكن أيدي الشيطان وهي ترقب جيداً ما الذي يريد السودانيون أن يفعلوه، تمد زوائدها السبع لكي تخنق المعجزة، ويمنع السوداني والعربي والإفريقي من أن يتلقى الدفق الإلهي الذي يعد بالكثير.. ترى هل سيقدر للشر أن ينتصر على الخير والاعتقال اللاإنساني لوعد الأرض أن يمضي إلى هدفه دون أن تكسره سواعد السودانيين أنفسهم.. تلك التي قدرت.. ولأول مرة.. على أن تشق في قلب الصحراء.. اثنتين من الترع الكبرى في العالم... لكي تسقيا الصحاري العطشى بسخاء النيل الذي ما له من نفاد؟!

أضع أمتعتي في الغرفة وأخرج بمعية الأخوة من جامعة القرآن الكريم.. لتناول الغداء في المطعم الأنيق.. أطلب سمكاً... فهو وجبتي التي لا أكاد أملها، فيطلبون الشيء نفسه.. إنهم حتى في هذه يشعرون ضيوفهم بحالة التوافق الجميل.

أفتح التلفاز وأنا مطمئن إلى أن عيني لن تقعا على ما يؤذي أو يثير.. منذ أربع سنوات، في فندق يحمل الاسم نفسه.. عند ضواحي باريس، ضغطت على زر التلفاز فصدمني عرض يصير فيه الإنسان حيواناً مقرفاً.. وتعهر المرأة فتفقد أيما صلة لها بسويتها البشرية... كائناً رخيصاً يمارس الجنس كالذي يحدث في (جبلاية) القرود وحدائق الحيوانات السفلى.. هناك في سقف العالم المتحضر ينحدر الإنسان إلى بئر لا غور لها.. وهاهنا قبالتي في السودان التي بدأت منذ سنوات فحسب تشق طريقها إلى فوق.. محاولة الإنسان استعادة سويته التي أرادها له الله.. تلك هي المهمة الصعبة والامتحان القاسي، والتحدي الذي يجابه السودانيين اليوم.. وأغلب الظن أنهم... بقوة العقيدة التي جاؤوا لكي يضعوها في قلوبهم.. ويرسموا بمطالبها خطوط حياتهم بكل تفاصيلها ومفرداتها، سيقدرون على اجتياز الامتحان.. وسوف يقدمون للعالم.. بغض النظر عن موقعهم في قارة لا يزال الكثيرون ينظرون إليها بيقين مهزوز.. حالة أكثر ملاءمة للإنسان من كل المحاولات والتجارب الأخرى.. التي ملكته كثيراً.. كما يقول أريك فروم.. لكنها منعته من أن (يكون).

٣

في لحظات الشفق الواني أخرج لكي أتجول في الشوارع المحيطة بالقرية الخضراء.. أريد أن أشم رائحة إفريقية.. أجتاز أحراشها البرية

وأنظر عن كثب إلى كل أولئك الذين حباهم الله قلوباً بيضاء بلون الثلج. . كل واحد منهم كان يبتسم بلا تكلف.

تحس كما لو أنه يرسم البسمة بريشة سحرية تستمد لونها من أغوار الروح المترعة بالمحبة والصفاء. . أحاول مراراً أن أسبقهم بالتحية. . ولكني أعجز. . لكأنهم مفطورون على توزيع تحاياهم للرائحين والغادين. . . . مررت بشلة من الأطفال يلعبون على حافة الطريق. . عندما ألتقي أطفالاً أحبهم. . أصير مثلهم طفلاً. . . . أتمنى أن ألعب معهم. . أن أضع عن عاتقي هموم الدنيا. . أتخفف منها جميعاً. . وأندفع مع الصغار متقافزاً أصرخ وأغني، وأسترجع فرحي القديم. . فرحي الضائع. . هم أدركوا هذا فابتسموا بحرارة ودعوني بلغتهم الخاصة أن أظل معهم. . قبَّلتُ اثنين منهم بشغف. . ورفست الكرة بعيداً وهم يتصايحون، واستأنفت سيري. . ثمة بضعة كيلومترات تفصل الممر الضيق عن الشارع. . من بعيد يجيئني صوت المؤذن عذباً حلواً مترعاً بالنداوة والصدق. . . أتذكر الأصوات العذبة التي ظلت ترفع النداء على مدى مئات السنين. . أتذكر كل الذين ركزوا رايات (لا إله إلا الله) في تخوم إفريقية السمراء. . كل الذين أنشؤوا دولاً وقادوا حشود الوثنيين إلى الإيمان، وألوف المتخلّفين إلى التحضّر. . كل الذين أخذوا على عاتقهم أن يرفعوا السيف والبندقية بوجه الغزاة (البيض) الذين جاؤوا من قارات الدنيا البعيدة لكي يسلبوا الإفريقي كل ما يعتز به ويعضّ عليه بالنواجذ. . خط طويل من الشهداء والقديسين قدمتهم إفريقية من أجل أن تتجذر كلمة (لا إله إلا الله) في

الأرض الواعدة التي سيقدر لها أن تغني خارطة العالم وأن تنشئ دولاً وإمبراطوريات.. وأخيراً، أن تقدم الوعد في قلب القرن العشرين.. على أن كلمة الله وتعاليم رسوله آتيتان إلى السودان لكي تمنحا العالم مرة أخرى الأمن والسكينة والتوحّد والرضا والإحسان.. وأنه ليس ثمة قوة في الأرض بقادرة على أن تصد المحاولة عن المضي إلى هدفها الذي طالما تاق إليه الإنسان الضائع في عالم لم يعد يأبه بالإنسان..

أحس وأنا أقفل عائداً.. عبر الطريق نفسه.. أنني أتوحد مع الأرض... والإنسان والنهر.. والأحراش.. والمنائر.. المنتشرة بسخاء هنا وهناك.. أنني أتوحد مع الصوت الواحد الذي ينبثق عذباً مؤثراً شجياً، من كل المنائر.. النداء.. الذي ليس ثمة في العالم كله أعذب ولا أشجى ولا أغنى منه..

أقول في نفسي وأنا أدلف إلى حدائق الفندق، وأجلس قليلاً في عزلة أحبها إلى حد العشق، عند حافة بحيرة اصطناعية هناك.. هاأنذا أعثر على ما كنت أتوق إليه..

رائحة إفريقية ليست كأي رائحة أخرى.. يمتزج فيها عنف الخلق كما لو أنه يتشكل اللحظة.. يهيمن الزمن المتطاول الذي لا يعلم بداياته القصية الأولى إلا الله، على اللحظة الراهنة فتحس كما لو أنك تعيش، ليس تاريخ الإنسانية فحسب، ولكن تاريخ الأرض التي طالما تحدث عنها كتاب الله وهو يحكي بآياته البينات كيف أصدر إليها الله

سبحانه أمره العلوي؛ لكي تصير مهداً يحتضن الإنسان القادم من مكان لا يعلمه إلا الله.

لا يهمني أن أبقى في جلستي هذه ساعات، فإن دراستي في مصر، على عشقي لها لم تشبع في نفسي توقي القديم لإفريقية التي قرأت عنها كثيراً... لكنني الآن أريد أن أراها.. أن ألمسها أشمها وأتذوقها... ولكن يقطع علي خلوتي بين الحين والحين هاتف من هنا وهناك.

بدأ الأصدقاء والأحبة يتسامعون بوصولي.. كل يريد مقابلة أو موعداً... أتملص من العديد منها.. أؤجل بعضها الآخر.. ولكن ثمة مواعيد لا تستطيع منها فكاكاً... وعلى أي حال، أقول في نفسي، فإن أمامي أسابيع أخرى سأخلو فيها إلى نفسي، وسأبذل جهداً أكبر للإيغال في شرايين إفريقية عبر البوابة السودانية، ويومها سأحظى بالكثير، فأبل ريقي، وأروي عطشي القديم..

٤

والخرطوم المثلثة، كما يحب السودانيون أن يطلقوا عليها، مدينة بسيطة يشطرها فرعا النيل إلى أقسام ثلاثة: الخرطوم... الخرطوم بحري.. أم درمان.. وثمة عدد من الجسور يصل بين هذه الأقسام.. الشوارع فسيحة تمتد لمسافات متطاولة.. أحدها... شارع النيل.. يسير بموازاة النهر وهو يصعد شمالاً باتجاه أم درمان، حيث تلتمع عن بعد قبة جامعة القرآن الكريم، ومنارتها الأنيقة، بطاقتا دعوة مفتوحة

لكل العشاق الذي يبحثون عن الهوية الضائعة لهذا الوطن الذي وجد نفسه أخيراً، وعثر على ذاته التي افترستها الصدمة الاستعمارية وذيولها من مغامري العسكر وشراذم الأحزاب. .

إلى الشمال عدد من الفنادق العتيقة القادمة من عصر الاستعمار البريطاني. . أبنية أخرى للرئاسة والجيش وعدد من الوزارات. . . إلى اليمين يتلوى النيل، رمادياً حيناً، أزرق نقياً حيناً آخر. . مختلطاً بالطين الأسمر حيناً ثالثاً. . .

مكان ما علقت عليه لوحة تحذر من السباحة فيه. . . يلمح السائق (مقبول) التساؤل في عيني فيقول: قبل سنتين تعرض زورق يحمل شاباً وعروسه لضربة تمساح. . أسأله، وأنا أتذكر العلاقة الأبدية بين النيل والتماسيح. . فيجيب: قضى على العروسين بضربة واحدة، وكانت لحظات محزنة.

والتمساح؟

تمكن عدد من الأهالي من القضاء عليه. . ولكن بعد فوات الأوان. .

لم يقل لي أحد تعال لنريك حديقة الحيوانات. . ولا أدري حتى اللحظة إن كان هناك، في الخرطوم، حديقة للحيوان، رغم أننا هنا على حافات الاستواء حيث الخليقة لا تزال تكافح من أجل الحفاظ على (النوع).

وأتلفت وأنا أتجول في شوارع العاصمة المثلثة.. عن بناية مرتفعة ذات أدوار، فلا أكاد أجد لها أثراً... العمارات في معظمها من دور أو دورين، لذا فإن الخرطوم تنفتح أكثر على السماء، وتتلقى ضوءاً أشد غنى من أي عاصمة أخرى.. ربما.. ومع الضوء لفح الشمس الذي يستعين عليه السودانيون بهدوء الأعصاب، والمرح البريء، والنكتة المعلقة على الألسنة.

ملعون هذا الاستعمار الإنجليزي، الذي ابتلينا نحن أيضاً في العراق بويلاته.. إنه يحكم البلاد والعباد عشرات السنين، فلا يحاول أن يتقدم بهم خطوة واحدة... هو بخبثه المعروف، لا يحاول ما وسعه الجهد، أن يتدخل في عقائدهم على المكشوف.. وفي الوقت نفسه لا ينفق درهماً واحداً لرفع مستواهم العمراني والمعاشي.

الفرنسيون، على العكس.. يضعون نصلهم مباشرة في دين المستعمرين... ولغتهم... لكي يذبحوهما...

بينما في الجهة الأخرى ينفقون بسخاء، فإذا المدن المستعمرة تصير، بعد فترة تقصر أو تطول، وكأنها استعارت من أوروبة نفسها تصاميمها وأناقتها ومعمارها الجميل...

والإنجليز أذكياء... يعرفون جيداً أنهم لن يبقوا في البلاد التي استعمروها طويلاً... ولذا يتعمدون أن يتركوها خراباً.. والفرنسيون يركبون رؤوسهم ويجرون ضد قوانين التاريخ وسنن الله في العالم... وفي يوم ما لم يكن أحد منهم أياً كان موقعه، يتصور أن الجزائر..

مثلاً. . . . يمكن أن تفلت من ارتباطها بفرنسا كأي ولاية فرنسية أخرى. . . هل يمكن لليون أو مارسيليا مثلاً أن تخرجا عن انتمائهما لفرنسا (الأم)!

والإنجليز لا يكتفون بإيقاف عقارب الزمن على حالة التخلف العمراني للبلد الذي يجثمون على أنفاسه. . بل إنهم قبل أن يرحلوا يزرعون فيه من المشاكل وقوى الشد والتعطيل ما يجعله يئن من التخلف لعقود أخرى، فلا يستطيع الفكاك قبل مضي وقت طويل. . .

يأخذني أحد الأصدقاء إلى السوق الشعبي، فأجدني قبالة إفريقية كرة أخرى. .

العطور. . والخرز الملون، والمصنوعات الجلدية، والمنحوتات الخشبية، والأقنعة. . حيثما تلفت أجدني حيال جلد الثعبان الأسمر الفاتح المطعم بالبقع السوداء. . والأحزمة. . والأحذية والحقائب. . هنالك أيضاً الحلي ذات الألوان الصارخة واللمسات الغرائبية. .

مهرجان للفلكلور الإفريقي هذا السوق. . . وأنت تغادره تلاحقك روائح إفريقية وطعومها الحادة، وألوانها الحارة القادمة من خط الاستواء. . .

٥

تلحظهم جيداً. . كنت قد سمعت عنهم كثيراً. . ولكنك الآن تراهم معك وقبالتك تماماً. . هذا العشق المنفرد للكلمة. . للإبحار اليومي

في أوقيانوس الفكر والثقافة.. هذا التوق لجعل كل الأشياء والمفردات والظواهر والموجودات.... تتشكل وتبدأ رحلتها في عالم التنامي والصيرورة والإبداع تحت مظلة الله.. إنهم يعرفون جيداً.... ربما أكثر من غيرهم.. أنه ما من شيء في هذه الدنيا إلا وقد قال فيه هذا الدين المدهش.. كلمته.. أو بعبارة أخرى.. إنه ما من ظاهرة أو شبكة من المعطيات إلا وهي مخترقة بقوة الإيمان الإسلامي المتعقل حتى النخاع.. مكشوف عنها النقاب لكي ما تلبث أن تصير تحت الضوء.. تحت الضوء تماماً... ومن ثم فإن أي قدر من العتمة أو الضباب قد يكون دافعه وجود خلل ما في العين البشرية.. أو في نسيج الظاهرة نفسها.. أما في الجانب الآخر.. فإن الإسلام قادر في أي لحظة، إذا أحس التعامل معه، على أن يعيد الأشياء إلى مكانها الحق وأن يضعها في محلها تماماً..

في الكيمياء، في الفيزياء.. في الطب.. في الهندسة.. في النفس، في المجتمع، في السياسة، في الاقتصاد، في القانون وفي الإدارة.. كل كتل هذا الكون ونظمه.. كل صلابته المدمكة وخفقانه.. المدهش... في مجاري الأفلاك.. والسدم والمجرات والشموس والأقمار.. في منسربات البروتونات والنيوترونات.. هنالك دائماً كلمة الله الآمرة التي تشكل الأشياء والظواهر والموجودات وتقول لها كوني.... فتكون..

هم يعرفون هذا جيداً.. وكنت تلمح في عيونهم هذا التوق المكافح للالتحام الذي ضيعته العلمانية الملحدة.. وهاهم الآن يسعون بدءاً من

أعلى الهرم الذي يتصاعد بنيانه باسم الله وصولاً إلى قواعده السفلى التي تجاهد لإرسائه على بركة الله.

كنت أتلقى كل يوم حشوداً من الطلبات لإلقاء محاضرة هنا.... والمشاركة في ندوة هناك، والإجابة على سيال الأسئلة المتوفرة التي تبحث عن جوابها الدوائر في خفقان الأفئدة ووهج العقول.

أقبل بعضها وأعتذر عن البعض الآخر... قدراتي محدودة ووقتي يضيق على الخناق، والشد النفسي الذي تضعني فيه شبكة المطالب المكثفة يرهقني كثيراً... ولكني أنغمر معهم في العشق المتفرد... أقرر أن أفرد شراعي وأن أبحر معهم وبما وسعني ووسعهم من جهد في دنيا الله؛ التي يلتقي فيها العلم في أقصى حالات تعقلنه بالإيمان في أشد لحظات توهجه... هناك حيث يصير الفعل المعرفي صلاة وصياماً وحجاً..

تحدثت إلى الطلاب في الدراسات الجامعية الأولية وإلى متخصصين في الدراسات العليا.. إلى جماهير المثقفين.. التقيت الطلاب والطالبات.. حاضرت في منتديات النساء وفي معسكرات المجاهدين... وإزاء نخب الموظفين في الحلقات الإدارية والإعلامية.. أجريت عدداً من المقابلات التلفزيونية والصحفية.. وفي كل مرة كنت أجدني قبالة العيون نفسها.. العيون المعلقة بالكلمة.. تحاول بعشق وشغف أن تخترق قشرتها الخارجية لكي تمضي إلى الجوهر والمغزى فتعانق الحقيقة في أقصى حالات ألقها وتكشفها...

كنت في أعقاب كل ندوة أو محاضرة أتلقى سيلاً من الأسئلة. . . وعندما أبلغ حافات الإعياء أجمع قصاصات الورق التي يكتب عليها الحضور أسئلتهم وأضعها في جيبي. . وأقول لهم أنني سأحملها معي إلى بلدي. . فما من شيء يثير اعتزازي كهذه القصاصات. . إنني أعرف جيداً كيف أتعلم منها. . وكيف أتجاوز بصدقها وعفويتها، عجزي وقصوري.

كثيفة خصبة ومتنوعة كانت الأسئلة التي تثار في ختام كل محاضرة. . . . ما الذي يدل عليه هذا؟ كنت أسألهم. . ما الذي يريدون أن يقولوه سوى أنهم كانوا معي في كل كلمة. . . ولدى كل منعطف. . وأنهم منذ البدء حتى المنتهى كانوا يبحرون معي على المركب نفسه لا ينفلتون أو يشردون. . ومن ثم فهم يريدون، مثلي تماماً، جواباً مقنعاً على كل ما أثارته الرحلة أو عرض لها وهي تمضي إلى غايتها في بحار الدنيا. .

كانت المحاضرات تنصب على التاريخ وإعادة كتابته وتفسيره. . على المنهج. . . على أسلمة المعرفة. . . على الحضارة والفقه. . وعلى الأدب والفنون. . . وثمة محطات لالتقاط الأنفاس في أمسية أو جلسة قراءات شعرية. . نبعد فيها قليلاً عن جدية العلم وصرامته، لكي نسيح قليلاً في منعطفات الوجدان. . .

هاهنا. . السودانيون كلهم شعراء. . . . يتدفق على شفاههم غنائياً عذباً. . . يحفظون منه الكثير. . . ذاكرتهم الشعرية قل نظيرها بين الجماعات والشعوب. . المقولة أو الحكمة المصوغة في بيت أو بيتين

أو مقطع شعري.. تجيء دائماً في اللحظة المناسبة شاهداً على مقتضى الحال.. يعرفون تماماً كيف يرفعون خطابهم الشعري في اللحظة المناسبة.. وما من دعوة على الغداء أو العشاء إلا وتتبادل فيها القصائد والأبيات..

السودانيون ما بين شاعر مبدع أو منشد جيد يعرف كيف يتغنى بالشعر.. وهم في الحالتين يتعاملون بصدق وعفوية مع جماليات الأداء الشعري.. ولذا كان يتدفق على ألسنتهم سائغاً عذباً...

من لم يكن شاعراً... فإنه سيجد نفسه في السودان مرغماً على أن يدخل مملكة الشعر... وأن يصير واحداً من عشاقه ومريديه...

المرأة السودانية تملك هي الأخرى حضوراً مشهوداً في ساحة الفكر والإبداع.. في محاضراتي لدى طلبة الدراسات الأولية كانت أحياناً الأكثر عدداً.. في مقاعد الدراسات العليا كانت تسأل وتناقش وتعترض وتضيف... في الندوات العامة كن يتدفقن من كل مكان مهما بعدت الديار لكي يشاركن في الاستماع والحوار.

لازلت أتذكر إلحاح رئيسة اتحاد المرأة السودانية وعدد من معاوناتها على أن أخصص لهن محاضرة أو أمسية.. تدفقن في اليوم الموعود بأعداد كبيرة جئن من كل مكان رغم الموعد المتأخر في الليل، رغم تنائي المسافات والديار.. كنت ألمح توقهن الفريد لمتابعة ما يقال.. وكُنَّ يسجلن الملاحظات ولا يكدن يتركن صغيرة ولا كبيرة.. والأسئلة التي أثرنها في أعقاب المحاضرة دلت على وعي

متأصل في دنيا الأفكار وصراع الثقافات والمعتقدات. . . وعلى رغبة أكيدة في أن ينزل الإسلام في شرايين الحياة الفكرية والثقافية لكي يقول كلمته. .

ومن وراء هذا كله كنت ألحظ في المرأة السودانية شيئاً ما لحظته في أي قطر عربي أو إسلامي أتيح لي أن أزوره، أو أمر به مروراً سريعاً، اللهم إلا في المغرب الشقيق.

إن المرأة السودانية كانت قد اجتازت منذ زمن بعيد وبقوة التقاليد الإسلامية نفسها، أي عقدة أو حساسية. . . وهاهي الآن تنحدر من نسل الأجيال الأولى القادمة من عصر الصحابة. . والتابعين، واثقة بنفسها وخصائصها وقدرتها على العطاء. . فاعلة في صميم الحياة. . . عاملة في قلب العصر. . مشاركة في صياغة المصير. . تكتب وتحاضر وتناقش وتملك حضوراً مدهشاً في ساحات الفكر والعطاء والإبداع.

سيختصر هذا الطريق على التجربة السودانية. . وهي تتعامل مع ما يسمى خطأ بقضية المرأة أو معضلة المرأة. . فليس ثمة في الحياة الإسلامية. . إذا أردنا الحق. . قضية أو معضلة تخص المرأة. . وهاهو ذا المثل الواقعي المشهود في الشارع السوداني. . في المدرسة والجامعة والمنتدى والدائرة. . وفي كل خلية من خلايا الحياة السودانية.

المرأة المسلمة حاضرة. . بكل التزامها. . الديني والأخلاقي والاجتماعي والحضاري. . فليس ثمة أيما فاصل أو ثنائية، تحت مظلة

الإسلام، في تجربة المرأة وخبرتها، ما بين الديني والأخلاقي والاجتماعي والحضاري..

٦

يتصل بي الأخ مدير جامعة (إفريقية العالمية) في الخرطوم يطلب إلقاء محاضرة على طلبة الدراسات العليا، ولقاء مع الأساتذة لتعميق التعارف... أرحب بالعرض... إنها فرصة طيبة للاطلاع عن كثب على واحدة من حلقات الخبرة السودانية الواعدة... أن تقوم مؤسسة معرفية بمستوى جامعة في توجيه خطابها العلمي إلى عموم إفريقية... إذا كانت السودان هي طريق العروبة والإسلام إلى إفريقية، فإن التحقق لن يكون بالأماني والأحلام.. لابد من ترشيد الخطوات وإقامة مؤسسات تأخذ على عاتقها مهمة التواصل مع الإفريقي وتعميق اللقاء بين الطرفين... لقد كان الطريق مفتوحاً.. دائماً.. لكن يداً عاقلة مدبرة لم تمتد لكي تشد على أيدي الإفريقي وترفع إليه خطاب هذا الدين بقوة الآليات المعرفية... لكي تجعله أكثر توحداً مع شقيقه العربي.

الآن الكل على قدم سواء.. تماماً كما هو الحال زمن النبوة المدهش حيث يصير بلال الحبشي مؤذناً لرسول الله ﷺ.. وحيث يختار النبي المعلم أرضا إفريقية لخلاص المضطهدين من أتباعه..

ثمة فجوة أو خندق عميق أقامه الاستعمار والصهيونية لعزل العربي عن السلم الإفريقي.. وتجيء التجربة السودانية لردم الحفرة اللعينة..

وتعديل الوقفة. . وإعادة الوضع إلى نصابه. . . الآن تبدو مؤسسة كجامعة إفريقية العالمية. . واحدة من محاولات قد تزداد عدداً وغنى وعطاء بمرور الزمن للإعانة على هذا التوحد المرتجى؛ الذي تفرضه ضرورات العقيدة والجغرافية والحضارة. . فضلاً عن المصلحة الصرفة.

في مكان منعزل، تعمره الخضرة والأشجار الظليلة، عند الأطراف الجنوبية للخرطوم، تقوم هذه الجامعة التي تكافح بصمت. . دونما جلبة أو ضوضاء. . فتتلقى الأفارقة والسودانيين معاً. . . ومع الأفارقة والسودانيين طلبة من أنحاء شتى من العالم. . . لكن تظل الساحة الإفريقية شغلها الشاغل.

يستقبلني المدير بشخصيته المحببة. . يعرفني على الأساتذة الذين سبق أن التقيتهم والتقوني على صفحات الكتب والمجلات. . وهانحن الآن يجمعنا مكان واحد تظله الألفة في الله والمحبة فيه. . . يا الله. . ما أروعها من محبة. . إنها تعلو على صنوف العلائق والمودات في هذا العالم. . تملك طعماً فريداً يجعلك تحسّ أنك تعرفهم منذ عشرات السنين. .

نتجه سوية إلى قاعة المحاضرات. . كان طلبة الدراسات العليا ينتظرون. . هيئة أمم إسلامية تضم جناحيها على طلبة من شتى الأقطار. . كانت المحاضرة عن قيمة الخطاب الأدبي والفني الضائع في ديارنا، وضرورة تحفيزه وهندسته وإعادة صياغته من أجل توظيفه في صراع العقائد والثقافات. . إن مؤسسة حيوية كجامعة إفريقية

العالمية.. حري بها أن تأخذ زمام المبادرة وأن تجد في الأدب والفن، جنباً إلى جنب مع العلم والمعرفة... فرصة للتحرك صوب إفريقية التي تنبض بالعشق والفن والجمال..

نؤدي صلاة الظهر في مسجد الجامعة.... مسجد كبير فاره يتسع لمئات المصلين.... لدى رفع النداء للصلاة يمتلئ بالمصلين.. هاهنا أيضاً تجد نفسك قبالة أمم الإسلام كلها تؤدي الصلاة وسط إحساس غامر بأخوة الإسلام التي تذوب فيها وتنصهر كل الفوارق والحواجز.. وتزول كل المتاريس والجدران.. فيصير العربي والإفريقي.. الأسمر والأسود.. النوبي والزنجي.. جسداً متوحداً.. وروحاً متفردة تتجه إلى الله الواحد سبحانه.. رب الجميع.

بعد أداء الصلاة يطلب المدير أن ألقي كلمة.. فأوجزها بدقائق معدودات.. إنه الإنجاز.. الفعل الحضاري الموصول الذي بدأ به هذا الدين كلمته الأولى في غار حراء... وظل بعدها يتدفق فاعلاً سخياً.. قادراً على الحضور والتشكل في قلب العصر من أجل صياغة عالم يليق بالإنسان.

والسودانيون، اللحظة.. وهم يحفرون الصحراء.. ويشقون في رمالها العطشى منذ آلاف السنين نهري الرهد والكنانة.. من أجل إرواء الأرض المتيبسة.. إنما يستجيبون لتحديات اللحظة الراهنة... زمن الحصار الغربي الفاجر الذي يتطلب أمناً غذائياً.. وهاهم الآن على مدى سنوات قلائل من عمر ثورتهم الوليدة يحققون الوعد..

بينما الحصار ماض إلى زمن لا يعلمه إلا الله. . . ولن يكون فكه بالتوسل إلى الآخر، ولكن بإرغامه على أن يتوسل هو إلينا لكي تقدم له الغذاء يوم أن يعضه الجوع بنابه ويعز عليه الرغيف.

بصحبة أحد الإداريين أتجول في منشآت هذه الجامعة الفريدة. . المكتبة العامرة التي تكافح لاحتواء كتب أكثر. . وورشة التدريب الفني التي تخرج الكوادر الوسيطة في ميادين النجارة والميكانيك والكهرباء. . . والمطبعة الحديثة التي تعد بتحفيز حركة النشر على مستوى الكتب المنهجية والدوريات. .

٧

يقلني أحد الأخوة إلى جناح الإعلام في منظمة الدعوة الإسلامية. . يرحب الأخ المسؤول، ويقدم عرضاً موجزاً لفكرة المنظمة وأنشطتها. . . والآن قال لي: ستشهد مقاطع لعروض تلفازية عن الجهاد من أجل تحرير الجنوب.

شعب يدافع عن وحدة أرضه ودياره. . أقول في نفسي. . ماذا في ذلك؟ التاريخ أعطى السودانيين جواز سفرهم عبر الرحلة الطويلة إلى المستقبل، مواطنين في بلد واحد. . . يخفق بالرضا ويتوق إلى حياة آمنة سعيدة تكسر حاجز الخوف والجوع. . . فماذا في ذلك؟

لكن (الآخر) لم يرد لهم هذا. . . والدوافع كثيرة. . . والأسباب أكثر انكشافاً من أن يجهد الإنسان نفسه للبحث عنها.

على السودان أن يدفع ضريبة عمقه الجغرافي في إفريقية السمراء... والتاريخ لا يخطئ.. كما أن الجغرافيا التي تشكل أحد أضلاعه الثلاثة لا تخطئ هي الأخرى... فهذا الدين الذي شق طريقه بمحبة إلى هذه الأرض.. كان يحمل منذ اللحظات الأولى أخوة الإنسان للإنسان تحت خيمة الله الكبيرة.. تزول في نبضه وتمّحي كل الفواصل والسدود... فليس ثمة عربي وزنجي.. الكل تشبثوا بحبل الله المتين، وبدؤوا رحلة الصعود من الجاهلية العتيقة إلى الدنيا الجديدة التي تليق بالإنسان، والتي أريد لهذا الدين أن يصنعها حيثما امتد ظله... أولئك الذين آثروا البقاء على أديانهم لم يرغموا على اعتناق الإسلام.. هم يعرفون هذا جيداً... إنها خبرة عشرات القرون... وهي أكثر من كونها معرفة... إنها تجربة تذاق وتلمس وتسمع وترى.. فليس ثمة غير الإسلام من يقدر على ترك من لا ينتمون إليه يختارون العقيدة التي يشاؤون ويظلون عليها.. ولكنه (الآخر) الذي لا يسمح بهذا.. أتذكر للحظات بيت الشعر الذي طالما استشهد به المفكر الجزائري (مالك بن نبي) رحمه الله وهو يتحدث عن ثنائية النحن والآخر..

وعينه دائماً تنادي

مجرم عالم الكبار

وأتساءل... بيني وبين نفسي: هل تسمح أمريكا مثلاً بانفصال بعض ولاياتها الجنوبية بحجة انتمائها إلى أصول أسبانية أو مذهب كاثوليكي؟ هل تسمح لولاية ذات أكثرية زنجية أن تفك ارتباطها

بالولايات المتحدة وأن تصنع مصيرها على هواها؟ ما الذي فعلته قبل أقل من سنة في إحدى الولايات التي أعلن زنوجها غضبهم واعتصبوا ضد التفرقة العنصرية التي لا تزال تعمل في أمريكا كالمنشار!!

وهكذا وبهذه الرؤية المنفعية (البراكماتية) المزدوجة التي لا تملك ديناً ولا أخلاقاً انغرز النصل الحاد في الجسد السوداني المتوحد فراح ينزف دماً.. والقصة طويلة.. عمرها عشرات السنين. والاستعمار البريطاني الذي سبق الطاغوت الأمريكي، لا يرحم، وهو عندما يغادر بلداً ما لا يتركه لحال سبيله... دائماً كان يزرع فيه قنبلة موقوتة تنفجر في اللحظة المناسبة لكي تشعل الحرائق وتنفث الدخان لعشرات السنين وربما مئاتها.

أخذ شريط الفديو يدور، أرتال المجاهدين تندفع لسحق المؤامرة وتطهير الأرض، وحماية وحدتها وهويتها،... متطوعون من كل مكان في السودان الكبير، من الوسط والشمال.. والشرق والغرب.. من المدارس والمعاهد والأسواق والمزارع والشوارع والأرياف والجامعات... تدفقوا كالسيل الطامي فيما أطلقوا عليه عام العبور.

عندما يصر شعب بأكمله على تجاوز المحنة ومعانقة المستحيل، فإن هذا يكون.. إنه الاستمرار الطبيعي لكلمة الله الفاعلة... وستار قدره في التاريخ والمصير... والتحقق ممكن.. والأهداف البعيدة تُطوى مسافاتها بدقائق ولحظات، ويتم العبور دائماً إلى الضفة الأخرى، عبر الدم والحزن والفجيعة والهول... لكنه يحمل..

أبداً. . . الوعد بيوم يسود فيه الأمن ويلتقي المواطن بالمواطن على كلمة سواء.

مقطع ما استوقفني. . التداعي الذي يجرني بعيداً في معظم الأحيان. . يتوقف هو الآخر، للحظات. . ماذا؟ لقد استطاع المصور التلفزيوني أن يلتقط صوراً وأحاديث لمجاهدين سيقدر لهم أن يستشهدوا بعد ساعات. . كيف تم هذا؟ لا أحد يدري. . ولكنني سأظل أتذكر ذلك الضابط الشاب الملازم. . . الذي بعث برسالة إلى أمه يقول لها فيها. . . لا تحزني فالموعد الله. . والهدف الذي أندفع إليه غال عزيز. . . وهو يتطلب ثمناً وأنت تعرفين ذلك جيداً. . أنت علمتني إياه. . . سأستشهد بعد لحظات، أو ساعات. . أنت حملتني الأمانة وأوصيتني ألا أرجع إليك كرة أخرى فلا تحزني.

بعد ساعات قلائل يستشهد الملازم الشاب. . الكاميرا الفذة تتابعه وهو يجتاز النار ويسقط صريعاً. . أحاول أن أمسك دمعتين في عيني. . أن أحبسهما هناك فلا أستطيع. . . أعرف جيداً أنني إذا أطلقت لهما العنان فإن سيالاً من الدمع سيمطر بصمت. . . ومع ذلك فإن ثمة إحساس بالتطهر والتخفف من الحزن والأسى. . وربما الإثم. . يمنحه البكاء. .

أشد على يدي الأخ مدير الإعلام وأنا أمسح عيني بظاهر كفي معزياً نفسي بأن يوم الخلاص قريب. . قريب جداً. . . وأن العبور. . قبل أن يكون اقتحاماً صعباً لتحديات جغرافية المكان، فإنه قدرة مذهلة على تجاوز جغرافية الذات والتحرر من أسرها. . والانطلاق من ثم

صوب الأهداف الكبيرة... يومها ستأمن كل الأمهات في ديار السودان على أبنائها.. يومها لن يكون ثمة خوف.. لن تكون هناك قلوب تنطوي على اللوعة المشكومة بقوة الإيمان... لا تجد طريقها لأن تتحول إلى صرخة جزع تنطلق من بين الضلوع... مدومة في فضاء الحزن الذي لا قاع له...

الأم هي السودان نفسها... وابنها الملازم الشاب هو كلمة الشهادة التي أريد لها منذ لحظات الإسلام الأولى أن تكون ستاراً لقدر الله، وشاهداً على العالم الوضيء المتوحد الآمن السعيد الذي جاء هذا الدين ليقيمه..

٨

يوم الجمعة.. في مسجد الجامعة.... والخطيب يتحدث عن زيارة البابا للسودان بعد أيام قلائل بدعوة من القيادة السودانية.. يجتمع في المسجد كل جمعة حشد من المثقفين، يستمعون إلى خطبة تمس أكثر الأحداث سخونة وحضوراً.. البعض يقول بأن هذا المسجد هو (بارومتر) السياسة السودانية منذ زمن بعيد.

دون صراخ يتحدث الخطيب كأنه يعرف جيداً أن المثقف المسلم ليس بحاجة إلى صراخ.... وأنه يريد بدلاً من ذلك تصاميم فكرية وتعليمات راصدة لما يجري في ساحات العالم.. إن أجهزة التوصيل الصوتي قد حسمت المسألة منذ زمن بعيد فلم يعد خطيب الجمعة بحاجة إلى أن يرفع عقيرته بأكثر مما يجب فيتلف أعصاب المصلين..

الخطبة يمكن أن تكون محاضرة هادئة مترعة بالاستدلال والمقارنة والاستنتاجات المقنعة. .

يتحدث الخطيب عن الزيارة القادمة. . . حدث الأسبوع هي ولا ريب، وربما حدث الموسم كله. . . غريب أن تدعو قيادة إسلامية ممثل الكاثوليكية في العالم، والانفصاليون في الجنوب يرفعون الصليب لتدمير وحدة السودان. . بعض المستمعين كان مندهشاً. . . تحت وطأة السؤال الملح. . كيف؟

بعد أداء الصلاة قام أحدهم معترضاً. . يحاول أن يستمد دليلاً فقهياً يدين دعوة البابا ويعتبرها (خطأ) بشكل من الأشكال. . ينسى هذا الرجل وقلة من الذين استفزّت الدعوة وجدانهم الديني، أن رسول الله ﷺ استقبل في مسجده بالمدينة وفداً نصرانياً من كبار القساوسة قدم من نجران. . ينسى أيضاً أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) طالما التقى ممثلي النصرانية في هذه الكنيسة أو تلك؛ لكي يريهم أي سماحة ينطوي عليها هذا الدين ولكي يصل معهم إلى كلمة سواء. .

دعوة للمشاهدة الميدانية. . . إذا صح التعبير. . لقد دعي البابا ليرى بأم عينيه ما يجري في الساحة، لا ما تقوله الأنباء التي اعتادت التلفيق، أو الإعلام الذي ينتفخ دائماً على حساب الحقائق فيحاصرها ويضيق عليها الخناق. .

والخطيب لم يشأ أن يدخل في معركة جدلية قد لا تصل إلى نتيجة. . ثمة مسلمون مغرمون بالجدل فيما حذر منه الرسول ﷺ. . وتجاوزهم هو الجواب الوحيد. .

أي بلد يطلب من أعدائه الذين يستميتون لتدمير وحدة الأرض وسلخ جزء عزيز من الوطن، من أجل توظيفه لأقطاب الطاغوت العالمي استعمارياً كان أم صليبياً أم صهيونياً. . . يقول لهم. . . تعالوا إلى كلمة سواء فليس ثمة غير الحوار السلمي والتفاوض المفتوح من أسلوب للوصول إلى الأهداف التي تتوخاها الأطراف كافة؟!

أي بلد يقول لقوى الاستكبار العالمي التي لم تتطهر بعد من نزوعها العدواني أننا على استعداد للتفاهم. . لتجاوز كل العقد والحساسيات وتراكمات التاريخ القريب والبعيد. . . . شريطة أن تكفوا عن التآمر علينا. . . وأن تعطونا الفرصة لإعمار الأرض وتنمية الحياة؟

أي بلد يقول للبابا، زعيم الكاثوليكية في العالم، تعال، لكي ترى بأم عينك علاقة المسلم بالنصراني وتعايشهما المشترك الذي ما عرفته تجربة أخرى في العالم خارج دائرة الإسلام؟

أي بلد يقول لعلماء الدين المسيحي من أمريكا وكندا وفرنسا وبريطانيا وإيطاليا وروسيا وألمانيا والسويد وكوريا والدول الإفريقية والفاتيكان ومجالس الكنائس العالمية: تعالوا إلى كلمة سواء في مؤتمر للأديان حيث يخاطبهم القس فيلوثاوس، راعي كنيسة الشهيدين القبطية قائلاً: «إننا في السودان لا نميز بين المواطنين في الحقوق والواجبات والتوظيف بسبب الدين، وإننا لا نكتب نوع ديانة المواطن في الأوراق الرسمية (البطاقات أو جوازات السفر) ولا نفرق بين الناس والديانات بسبب الأسماء. . لقد احتفلنا بعيد الميلاد المجيد وازدانت قلوبنا ببهجة الذكرى. . . وعلى نفس المستوى تحرك المسيحيون في عيد

الفطر يشاركون إخوانهم المسلمين فرحتهم. . لقد كان باب الإعلام مفتوحاً أمامنا ولم يزل، وكل هذا وحد القلوب نحو تأكيد نموذجية للتعايش والإخاء والتواصل الاجتماعي في سوداننا المتميز، ولم يحدث أن تحولت كنيسة إلى مسجد. . ولم يعتد أحد على أي مؤسسة دينية، ولقد أعطت ثورة الإنقاذ المسيحيين مكاناً بارزاً في الإذاعة والتلفزيون والصحف. . عندما نشعر أن شيئاً ما يمس فكرنا المسيحي نتحاور وبالحوار نصل إلى القرار، كما حدث بالنسبة لقضية الزي الإسلامي وعدم إلزام المسيحيات به. . والعمل السياسي مكفول للجميع. . ».

أشياء وخبرات كثيرة أخرى يلمسها المرء وهو يعاين عن كثب ما يجري في السودان. . معطيات من المحبة والنبل والسماحة تتدفق كشلالات إفريقية من أجل أن تغسل كل المرارات والضغائن والأحقاد، وترتفع بالتعامل بين الإنسان والإنسان إلى سويته التي أرادها له الله سبحانه ورسله الكرام. . عليهم أفضل الصلاة والسلام.

٩

قبل مغادرتي السودان بيومين كنت مدعواً من كلية القرآن الكريم في مدني لإلقاء محاضرة هناك. . . . . أنطلق فجراً بمعية أخي الدكتور عباس محجوب عميد كلية الآداب في جامعة القرآن الكريم بأم درمان. . ومصور تلفزيوني من المركز العالمي لأبحاث الإيمان. .

جنوباً باتجاه مدني، والنيل يتلامع عن بعيد، والشريط الأخضر

الذي يحف به لا يكاد يملأ العين.. وألتفت إلى الدكتور عباس: أين سلة غلال العالم التي طالما تحدثتم عنها؟

يضحك كعادته بصوت عال: إنك لم تر شيئاً بعد، هذه مجرد (سلاطة) تسبق وجبة الطعام.

بعد ساعتين نكون هناك.. الاستقبال المترع بالمحبة.. والأخذ بالأحضان على الطريقة التركية.. ووجبة الإفطار التي أغراني سمكها المقلي فرحت ألتهمه بشراهة جاوزت حدود اللياقة ومطالب... (الأتيكيت).. مشكلتي أنني أحب السمك إلى حد العشق.. ويبدو أن عميد الكلية وعدداً من أساتذتها لحظوا ذلك فسحبوا كل الأطباق التي تحتوي سمكاً ووضعوها أمامي.. قبالتي تماماً... وكأنهم يقولون بلسان واحد: كل، بينما انصرفوا هم إلى أصناف الطعام الأخرى..

ما كنت أدري أنني بهذا أجني على نفسي... ولكن ما الحيلة؟ لقد أتخم السمك معدتي وضيق الخناق على أنفاسي وكاد يخرج من أذني.. والمشكلة أنني على موعد مع محاضرة مطولة بعد دقائق... فعندما تضيق أنفاسي يصير جهد الإلقاء مضاعفاً، وأكافح من أجل التقاط الهواء النقي وإعانته على الوصول إلى مكانه في اللحظة المناسبة لكي أقدر على مواصلة الإلقاء.

كانت السرادقات قد أقيمت في الباحة الخارجية قبالة المنصة تماماً.. وبدأ الطلبة والمدعوون يتدفقون على المكان... هاهنا أيضاً يلحظ المرء حضوراً مؤكداً للمرأة السودانية... مترعاً بالشوق

للمعرفة. . . شجاعاً صريحاً. . . غير متردد. . ولا وجل قبالة الحقائق التي يتحتم أن يكشف عنها النقاب.

ثمة مناقشات خصبة تدور بعد الانتهاء من المحاضرة التي حاولت أن تقدم ملامح منهج جديد أكثر ملاءمة، في التعامل مع حضارة الإسلام في أروقة المعاهد والجامعات. . ومع المناقشات المباشرة سيل من قصاصات الورق التي تنطوي على حشود الأسئلة والمداخلات. .

لم أستطع الإجابة عليها جميعاً بسبب إعيائي. . وقبل أن أنهض قائماً يلحّ علي الدكتور عباس محجوب أن ألقي قصيدتين أو ثلاثاً. . . ومن بين المدعوين تقدمت فتاتان على استحياء. . . قدمتا لي عنوانهما وطلبتا أن أرسل إليهما بالبريد نسخاً من القصائد التي ألقيتها. . . فيما بعد عندما عدت الى بلدي أرسلت القصائد فهل تراها وصلت؟

والآن. . فإن الموعد قد حان لزيارة مشروع الجزيرة. . واحد من أكبر المشاريع الزراعية الجماعية في العالم. . وأكثرها عطاء. .

كانت البداية في المركز الإعلامي للمشروع حيث تمت مشاهدة فلم تلفزيوني وشرح لأحد القائمين عليه. . بعدها انطلقنا إلى (الميدان) نفسه. . وجهاً لوجه. . قبالة مساحات من الأرض. . الخضراء. . لها أول وليس لها آخر. . القطن والذرة والقمح والرز والشعير. . ومحاصيل أخرى تزرعها وتسقيها وتنميها وتسهر عليها وتحصدها وتقدمها للجوعى والكادحين. . يد سودانية خالصة استطاعت في لحظة

ما أن تفك ارتباطها بالغرباء.. بالعلق الذي يعرف كيف يمتص النسغ بصمت.. وأن تقوم على حماية مصيرها بأذرعها..

هاهو ذا طرف من محاولة التحقق بالأمن الغذائي الذي يقيم الدول والإمبراطوريات.. ويسقطها.. هاهي ذي الورقة التي تعرف دول الغرب الكبرى كيف تلعب بها بمهارة لكي تمسك بأعنة الشعوب ومصائرها، وتسوقها صوب ما تريد هي لا ما تريده تلك الشعوب.

لقد قدرت الإرادة السودانية في سنوات قلائل على تحقيق الأمن الغذائي، وبذلك أوجدت القاعدة التي تمكنها من إحباط مناورات الخصم رغم أن هذه المناورات انعطفت في مسالك جديدة من أجل تضييق الخناق على التجربة، وسد السبل أمامها للإفادة من فائضها الغذائي والحصول على العملات الصعبة الضرورية للبناء والإعمار..

هاهي ذي السلة التي كنت تبحث عنها.. قال لي الدكتور عباس محجوب.. وهو يشير بكلتا يديه إلى الأرض الخضراء.. إن بمقدورها أن تقدم عطاءها ليس للسودانيين فقط بل لإفريقية، وربما لمساحات واسعة من العالم الجائع الذي يبحث عن الرغيف..

عطاء الله سبحانه وتعالى ما له من نفاد.. أقول له.. محاولاً أن أملأ عيني من الخضرة الواعدة.. لكن مداخلة الإنسان تفسد أحياناً قدرة هذا الدفق الإلهي العجيب على المضي إلى أهدافه..

عندما غادرنا مدني كان الليل قد بدأ يهبط... وما لبثت السيارة أن انعطفت بنا قليلاً ذات اليمين.. واجتازت طريقاً ترابياً.. إلى قرية

مجاورة.. سترى إحدى الخلاوي.. قال الأخ معاون العميد الذي رافقنا في طريق العودة.

بناية متواضعة من الطين والخشب... لكنها كبيرة نسبياً وفي إحدى قاعاتها كان الأطفال والصبيان يحفظون آيات من القرآن الكريم بين يدي أحد معلميهم.. كانوا أشبه بخلية نحل مترعة بالحيوية والنشاط والرغبة في التعلم... وكانت أصواتهم العذبة تتردد متداخلة في فضاء القاعة.. ثم ما تلبث أن تغادر مدومة في الفضاء المفتوح على الليل.. والنجوم والسماء.

أحسست بدفقة إيمانية عذبة تجتاحني.. بينما كان أحد الصغار يرتل آيات من الذكر الحكيم.. وقال الأخ معاون العميد: إن الأغنياء هنا يتولون التغطية المالية لمطالب الخلاوي... ما من صغيرة أو كبيرة يحتاجها الطلبة إلا وجدوها حاضرة.. إنهم أسخياء لا يبتغون من وراء ذلك سوى وجه الله.... أقول له: لعله الامتداد الطبيعي لنظام الوقف المدهش في تاريخ الإسلام.

والخلاوي هذه.. أو خلايا النحل.. تنتشر في السودان من أقصاها إلى أقصاها.. تخرج أجيالاً من حفظة كتاب الله وقرائه ودارسيه.. ومع كتاب الله شيء من العلوم الشرعية ومبادئ المعرفة..

هاهو ذا المنجم السوداني الكبير الذي يعد بمستقبل تكون فيه كلمة هذا الدين هي العليا..

البداية كانت دائماً من هنا... ثم ما يلبث الحلم أن يصير أمراً

مشهوداً.. أتذكر الربط التي انتشرت في أعماق الشمال الإفريقي وخرجت حشوداً من المجاهدين والمعلمين الكبار... خرجت القادة والساسة والدعاة.. غيرت الخرائط العتيقة وأقامت الإمارات والدول والممالك والإمبراطوريات.. أتذكر المجاهدين الذين كانوا ينطلقون من هذه (الأوكار) المباركة التي يلتقي فيها بتناغم عجيب العقل والروح والجسد.. الفدائيين الذين جابهوا جيوش بريطانيا وفرنسا وأسبانيا وإيطاليا ومرغوا أنوفها بالتراب..

البداية كانت دائماً من هنا.. والمنجم.. كالمشروع.. الذي مررنا به ظهيرة اليوم.. يعدان بعطاء سخي.. هذا بالغذاء الذي يمكن من إدامة الحياة وذاك بالإنسان الذي سيقدر له أن يعيد مجد إفريقية تحت راية التوحيد..

١٠

وطنك هو وطني..

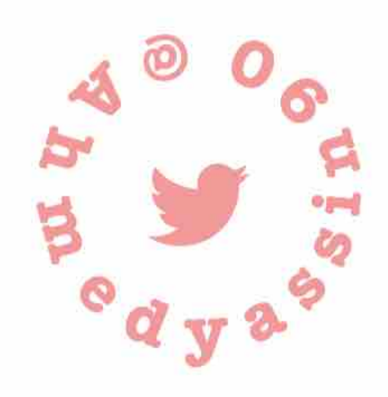
وطن كل مسلم في هذا العالم يتوق لأن يرجع اللقاء المرتجى كرة أخرى بين الله والإنسان..



إسطنبول

مرة أخرى


@Ahmedyassin90

١

في وضح النهار سأطل على وجهك الجميل هذه المرة.. قلت في نفسي وأنا أتشبث بنافذة الطائرة التي أخذت تتثاقل وهي تنعطف عبر قوس كبير في كبد السماء، لكي تختار اللحظة المناسبة للهبوط..

السقوف القرميدية الحمراء التي تغتسل بشمس الخريف.. غابة المنائر المزدحمة المنطلقة كالسهام إلى نقطة ما في سماء الله الكبيرة... القباب المتلامعة المنطوية على الخشوع والتسليم... طوبوغرافية الصعود والهبوط.. متلفعة بالخضرة الفاقعة المترعة بالفرح.. والبسفور الهادئ المتكتم على سره المعذب الموغل في التاريخ.

هذه كلها، وعشرات من الأشياء... والملامح... والموجودات.. المبعثرة هنا وهناك.. تدعوك.. ترحب بك.. تمنحك محبتها السخية وأنت تطل عليها من فوق.. تغتسل مثلها تماماً بدفق الشمس الذي يغمر الأماكن والمنعطفات والأشياء..

منذ سنوات ثلاث جئتك في الليل، منتظراً الوعد الجميل.. كانت تلك المرة الأولى.. كنت أتوقع أن عنفوان الدهشة وتوهجها سرعان ما سيكفان عن الخفقان بمجرد أن أجد نفسي ثانية قبالة ما كنت أحلم به دائماً.. وجهاً لوجه إزاء الملامح والقسمات.

عندها لن يكون ثمة جديد... وسيغتال الإلف والتكرار هذا التوق العارم للاكتشاف والالتحام.

تبين لي بعد سنوات ثلاثة، أن هذا مع إسطنبول بالذات لن يكون، إن تكوينها.. ينطوي على ألف طبقة وطبقة.. وإن عمقها الزمني.. تاريخها.. يمنحها غوراً يصعب الوصول إلى قاعه، أما جغرافيتها فتعرف كيف تغازل بلغتها الخاصة كل ما هو جميل باهر من الشرق والغرب... تدعوه لكي يستريح في أحضانها.

يا الله... كم أنت جميلة عذبة يا إسطنبول...

في باحة المطار.. يستقبلنا حشد من الأحبة النورسيين.. يأخذ بعضنا بعضاً بالأحضان.. نختزل بدفء المحبة في الله.. سنوات الفراق الطويلة.. فكأنها لم تكن، ثمة ما يكسر حاجز الزمن والمكان.. قاموسنا الإسلامي.. مترع بمفردات الاجتياز.. ولسوف يظل المسلم الذي يعرف كيف يتعامل مع هذه المفردات، متحرراً من الأسر.. فلا شيء مطلقاً.... يمكن أن يفصله عن العالم الذي يعشقه، والأحبة الذين انتظروه طويلاً.. تحت خيمة الله الكبيرة يستوي الليل والنهار..

نجتاز دروب إسطنبول وشوارعها لينتهي بنا المطاف في فندق اليوم الأبيض (أق جون) اختيار جميل أقول في نفسي... فليس ثمة في معمار الفكر النورسي ذي الطبقات والأدوار إلا ما هو أبيض يعد بالفرح والمسرة والخلود... قبالة كل البقع السوداء.... الكئيبة المشؤومة الفانية التي يريد الوضاعون أن يظل الإنسان يتخبط فيها..

أقول وأنا آخذ أخي (الدكتور عبد الحليم عويس) بالأحضان.. هاهي ذي الثمار النورسية تتدلى لكي نقطف ونحمد الله..

ألمح في عينيه الدهشة والتساؤل فأمنحه الجواب: ها نحن ذا نلتقي بعد فراق السنين الطوال... السياسات فرقتنا يا عبد الحليم.. فأحرى أن تجمعنا الكلمات..

٢

يوم السبت كان فاصلاً بين جمعة اللقاء وساعة الافتتاح الكبير.. استيقظنا مبكرين لكي نتناول فطورنا في بوفيه الفندق.. جميل أن تجد نفسك عند إطلالة الصباح، وفي مكان واحد، مع أخوتك القادمين من المغرب والجزائر ومصر والسودان ومواقع أخرى من ديار الإسلام، وأن يقف إلى جوارك.. بين لحظة وأخرى، أخ من تركيا التي تتمدد على حافات الأسود والأبيض والدردنيل والبسفور تنتظر اللحظة المناسبة لكي تنهض قائمة مرة أخرى لملاحقة الحلم الإسلامي الذي لم يكف عن الوجيب؛ حتى تصير كلمات الله وتعاليم رسوله عليه أفضل الصلاة والسلام خبز الإنسان اليومي وعسله ومنّه وسلواه..

نغادر الفندق حيث تنتظرنا حافلة أنيقة وضعتها بلدية إسطنبول.. عربون محبة تحت تصرف المؤتمرين.. الجو غائم، والسحب تذرع السماء ميممة صوب مكان ما من الأناضول، حاملة الوعد بالأمطار..

تنطلق بنا الحافلة باتجاه إسطنبول الشرقية... والدكتور عبد الودود شلبي كعادته يوزع كلماته وتعليقاته التي تمنح اللحظة مزيداً من الدفء والفرح. .إنه الآن يبدو أكبر كثيراً مما كان عليه قبل ثلاث سنوات فحسب.. لقد بدأ يشيخ.. أقول في نفسي.. إنه من الجيل الذي شق

الطريق المعبأ بالحجارة.. والبارود.. تلقى الكثير من اللكمات والدخان قبل أن يتمكن من تسويته للقادمين... بعضهم مات.... وبعضهم الآخر قتل.... وآخرون لا يزالون ينتظرون.. عذرهم عند الله أنهم شقوا الطريق ولم يألوا جهداً في تكسير حجارته وتعبيده.

والحافلة تصعد بنا القمة الشرقية التي تطلّ على إسطنبول حيث نحن على موعد مع بلدية الضاحية.. وضريح يوشع بن نون... والحديقة الأنيقة ذات العبق والألوان، والمقهى التراثي العتيق.. ثمة حشد من العاملات التركيات يتحلقن فوق مصطبة حجرية دائرية، يرققن العجين بخفة ومهارة، ويضعن فيه المكسرات ثم يدفعن به إلى تنانير المعدن المقوس التي تلتهب تحتها النار.. الملابس التركية الأصيلة بحشمتها وألوانها الفاقعة... وقبالتنا تماماً تتلفع إسطنبول الغربية بردائها الشتوي ذي اللون الرمادي الغامق، تنتظر هي الأخرى لحظة الأمطار..

نهرع إلى داخل المقهى طلباً للدفء.. لم يحسب أحدنا لهذا البرد المفاجئ حساباً.. توزع علينا هناك الفطائر اللذيذة التي جيء بها قبل لحظات من فوق التنانير.. ثم ما نلبث أن نصعد أكثر باتجاه القمة حيث يثوي جثمان الغلام الذي اصطحبه موسى عليه السلام في رحلته المدهشة.. ما الذي جاء به إلى هنا.. لا أحد يدري.. ولكنه على أي حال عرف كيف يختار المكان العالي لكي يأوي إليه... واحد من الشيوخ المقيمين هناك يحدثنا عن رحلة يوشع الطويلة ونحن نحدق في واحد من أقدم الأضرحة في التاريخ.. وفي المخيلة تتداعى ذكريات

موغلة في الزمن البعيد تنبض بتوق الإنسان للمعرفة.. لهتك الحجب.. واكتشاف سر الأشياء.. تحكي أيضاً عن عجلته.. وقلة صبره إزاء لهفته تلك.. ثم ماذا تكون كل معارف الدنيا وكشوفها إزاء علم الله وأوليائه والمقربين من رحمته سوى هذا الجزء الضئيل المنحسر الظاهر للعيان من كتلة الجليد الكبيرة الموغلة في الأعماق!!

مدير بلدية الضاحية يستقبلنا ببشاشة.. يحكي لنا عن بعض منجزات بلديته التي تعمل مع زميلاتها في إسطنبول الكبرى كخلايا النحل في الليل والنهار... هاهم (الرفاهيون) يطردون الكسل المعرش في خلايا إسطنبول منذ زمن بعيد.. يوم كان... (الشعار) والصوت العالي يرغم الأيدي المتوضئة القديرة على أن تفعل وتبني مجد تركيا كرة أخرى يرغمها على التوقف!

شلبي لا يطيق صبراً على الجوع.. فيطلق سيل تعليقاته ونداءاته.. يلمحه مدير البلدية فيبتسم ثم ما يلبث أن يعدنا بوجبة غداء في مطعم تركي على ساحل البسفور لتناول السمك و(الباجة).. يهم شلبي بالنهوض فيقول له شيخ تركي ذو لحية بيضاء كان يحكي لنا عن رحلة يوشع بن نون: على رسلك يا هذا، فإنني لم أتم حديثي بعد!!

تنحدر بنا الحافلة كرة أخرى باتجاه الكورنيش المحاذي للبحر حيث تنتشر المطاعم الأنيقة... وقبالتها تماماً، عبر الشارع.. يقف الباعة عند أكداس السمك الذي اصطيد قبل لحظات ينادون على بضاعتهم.. بينما يدلف المدعوون إلى المطعم لكي يتحلقوا حول المناضد الدائرية الصغيرة بانتظار الطعام..

٣

الحلقات النورسية تنتشر كخلايا النحل في شرايين إسطنبول.. صوت بديع الزمان.. يجب أن يظل مرفوعاً.. قبالة عشاقه ومحبيه.. خطابه الذي رفعه في مواجهة إعصار المادية والإلحاد في مئة وثلاثين رسالة، سيظل يدوم ويتصادى في كل مكان من تركيا حتى يقدر لهذا البلد العزيز أن يفيء كرة أخرى الى الله.

ندخل على رؤوس أصابعنا كي لا نقطع على الحشد المتجمهر من الشباب إنصاته لشيوخه وهم يقرؤون ويفسرون.. نجتاز المكان بصعوبة لكي نصل إلى صدر القاعة.. ثمة من يترجم لنا... الأخ (إحسان) غائب عنا.. منهمك بأعمال المؤتمر.. لكن... هناك دائماً من بين النورسيين الأتراك أنفسهم أساتذة في فن الترجمة.. يعرف الواحد منهم كيف ينقل نبض الشيخ بأي لغة يشاء... يكفي أن تعشق النورسي لكي تنقل رؤيته الندية للظواهر والأشياء والموجودات إلى كل لغات العالم... ننصت بشغف في محاولة لالتقاط ما يريد المتحدثون أن يقرؤوه أو يقولوه.. طبقات خصبة غنية مترعة بالعطاء هي كلمات النورسي ورسائله تعرف منذ اللحظات الأولى كيف تكسر حاجز العزلة بينك وبين العالم.. بينك وبين الكون.. بينك وبين الله.. لكي تضعك وجهاً لوجه قبالة العالم والكون والحضور الإلهي الجليل في صيرورة الظواهر والموجودات.

يطلب أحدهم أن نعرف بأنفسنا.. باختصار يتم التعريف.. فالمحبة والقاموس المشترك.. والحلم السعيد.. هذه جميعاً تختزل الطريق.. فنحن متعارفون منذ زمن بعيد.. قبل أن يتم أي لقاء.

أدور بعيني في أطراف المكان باحثاً عن (سنقر) فلا أعثر عليه.. وأقول في نفسي مطمئناً: لسوف أراه بإذن الله وحينذاك سأسأله عما فاتني في الرحلة الأولى، وظل يلح علي عبر ثلاث سنوات من الفراق: كيف كان النورسي يصلي؟!

٤

يوم الأحد يكون الافتتاح الكبير..

عندما ندلف إلى قاعة (مصطفى أتاتورك) تلفنا الدهشة، ممتزجة بقدر كبير من الثقة والاطمئنان.. هاهي ذي القاعة الفارهة.. تغص بالحضور... لا تكاد تجد لك.. حتى في مساربها وممراتها وأروقتها الخارجية موطئ قدم.

ينظر بعضنا إلى بعض وكأننا نقول بإيماءة العيون: إنهم يزدادون عدداً، بكل تأكيد وأتذكر للحظات، كيف أنه قبل أسابيع قلائل وعبر احتفالات الرفاهيين بمناسبة مرور خمسة قرون على فتح القسطنطينية غص ستاد عصمت أينونو بالمشاركين... نصف مليون لم تستوعبهم المقاعد، فانتشروا في أرضية الملعب ينشدون ويرفعون النداء الممحض لله ورسوله قبالة سمع الدنيا وبصرها.

كان موشح (شفاعة يا رسول الله) يتصادى في أطراف القاعة.. بينما يتوافد المدعوون من كل مكان.. هاهي ذي تظاهرة أخرى عبر أقل من شهر تشهدها إسطنبول.. وهاهي ذي الأجيال الفتية.. الأجيال المحملة بالشوق والعطش، تفيء كرة أخرى إلى خيمة الله الرحيم بعد عشرات السنين من التغرب.. والجوع.. والانقطاع...

وتتوالى الكلمات... ثم ما يلبث رئيس بلدية إسطنبول أن يجتاز القاعة مصافحاً بحرارة وانحناءة متواضعة ودودة، المدعوين الجالسين في الخط الأمامي.. لكي يبدأ بعدها بإلقاء كلمته..

أنظر إليه بتمعن.. شاب بعد هذا الرجل.. لم يتجاوز الخمسين.. يتقد غيرة وحيوية.. كان قد عاد قبل أشهر قليلة من أداء مراسيم الحج، لكي يواصل عمله في المهمة التي اختاره الأتراك لها: إدارة واحدة من أكبر البلديات في العالم وتحويلها إلى خلية للنحل تعمل ليل نهار وتوصل الخدمات الملحة إلى المواطنين من أقصى إسطنبول إلى أقصاها..

هاهو ذا الإنسان المسلم، تلميذ الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام.. يضرب مثلاً في القدرة على الإنجاز... الإسلام هو بمعنى من المعاني عقيدة الإنجاز.. مشروع كبير مفتوح قبالة الإنسان والجماعة المسلمة لكي تواصل رحلة الصعود إلى فوق.. الحركة في الطول والعرض لإعمار العالم.. إنهم مستخلفون في الأرض. مدعوون لإعمار الدنيا.. وكلمات الله تناديهم صباح مساء أن يغذوا الخطا ويواصلوا المشوار.. ومن تساوى يوماه، كما يقول الرسول المعلم.. فهو مغبون.

بلدية إسطنبول أصبحت عبر أشهر قلائل وسيلة إيضاح، إذا صح التعبير، لقدرة المسلم على اختراق واحدة من الحلقات الصعبة، التي يتفوق فيها الغربي في اللحظات الراهنة: الخدمات.. ومن يدري.. فقد يكون نجاح الرفاهيين هنا بالذات فرصة مؤكدة لانتشارهم وتجذرهم وكسبهم التحدي منذ الجولات الأولى.

يتحدث الرجل بمحبة عن النورسي ويشيد بالجهود التي بذلها تلامذته للإعداد لهذا المهرجان الكبير.. بعدها يجيء الدور على ممثلي الوفود.. علماء ومفكرون من شتى الديار.. اجتازوا المسافات الطوال لكي يشاركوا في الكشف عن السر المخبوء وراء الرسائل والكلمات.. يتحدثون بلغات مختلفة، لكن النبض الذي يرفع صوت الوحدانية في مواجهة الصنمية والطاغوت.. هو نفسه دائماً...

٥

تبدأ جلسة العمل الأولى صبيحة اليوم التالي في قاعتين كبيرتين من فندق اليوم الأبيض نفسه... لم تعد القاعة الواحدة تكفي كما كان الحال زمن المؤتمر السابق.. فالجمهور يتزايد باستمرار.. والحضور الملحوظ لملاحقة الخطاب الإسلامي في الساحة التركية.... كما هو في كل ساحات العالم في اللحظات الراهنة، حضور مؤكد...

كل متحدث يلقي كالعادة ملخصاً لبحثه، حتى إذا ما انتهى المتحدثون من تقديم الخطوط العريضة لبحوثهم، في سياق أو محور ما من محاور فكر النورسي، بدأت المناقشات.

القاعتان خليتا نحل.. المشاركون أكثر عدداً من ذي قبل.. والحوار بينهم وبين جماهير المثقفين والعطشى أكثر خصباً... والنقاب يكشف عن المزيد من طبقات الفكر النورسي وكنوزه.. ها قد أخذت تتشكل بموازاة رسائله المئة والثلاثين مكتبة غنية من البحوث والشروح والتعليقات، ولسوف تسهم بكل تأكيد في تجذير هذا الفكر الدعوي المؤثر في الساحة التركية، ونشره في الآفاق، وثمة ما يلحظه المرء: هذا الثقل الملحوظ للأكاديمية في أنشطة المؤتمر أساتذة وطلاباً وجامعات... إنهم يملكون حضورهم في معظم المعاهد والجامعات التركية من أقصاها إلى أقصاها.. وهذا مؤشر آخر على الفلاح.. بما أن الأكاديمية هي رأس الحربة وحجر الزاوية في صراع المعتقدات والأفكار.. وحوار المعارف والثقافات في قرننا العشرين..

في الفترات الزمنية الفاصلة بين جلسات العمل التي تستغرق يومين، ينشط الإعلام الإسلامي هو الآخر فيلاحق هذا الباحث أو المفكر.. أو ذاك، بحوار ينشر في صحيفة.. ومقابلة يعرضها التلفاز.. إنهم شباب في ريعان الصبا لكنهم يملكون طموحاً مدهشاً لتأكيد الصوت الإسلامي في ساحة الإعلام، والتحقق بقدر طيب من التغطية لزمنه الذي اكتسحته أصوات العهر والرذيلة والتفكك والإلحاد... وهم يدركون الضرورة البالغة لمهمتهم هذه، وأولوياتها المؤكدة في موازاة الأنشطة الأخرى، لدعمها وترشيدها ولذا فهم يبذلون جهداً مضاعفاً.

ومع الإعلاميين ثمة طلبة الجامعات التركية وطالباتها.. يركضون

هـم الآخرون وراء هذا المشارك أو ذاك لكي يوجهوا إليه سؤالاً أو يتلقوا إجابة ما. . تلمح في عيونهم العطش الشديد. . والتوق العارم لتلقي المزيد. . . عشرات الأسئلة والمعضلات تلح عليهم، فيهرعون للبحث عن الجواب. . . . هاهي ذي البداية الحقيقية. . . بعدها يكون (الطريق) أكثر إضاءة والأهداف المرجوة أشد تحديداً ووضوحاً.

٦

سيظل يوم الرحيل في البسفور في ذلك الصباح الدافئ المشمس مطبوعاً في الذاكرة، وسيظل طعمه العذب ينسرب في شرايين الإحساس. . لا تمحوه السنون.

حلم هو ذلك اليوم. . اختزلت عبر مرئياته المكثفة حيثيات الزمن والمكان. . . هاهنا والمركب السياحي يندفع بهدوء عبر الممر المائي العريض، تجد نفسك قبالة التاريخ والجغرافيا والحضارة. . إزاء الأشواق الملتهبة، والصيحات المكتومة، والطموح العجيب للوصول إلى حافات العالم واكتشاف سر الأشياء. . . تجد نفسك أيضاً وجهاً لوجه أمام الأسود والأبيض، معاً وهما يتصارعان للبقاء على البسفور إسلامياً آمناً سيداً وسعيداً. . . أو كافراً مذعوراً مستعبداً وتعيساً. . . بانوراما مفتوحة على مصراعيها هو البسفور بضفتيه على امتدادهما صوب الحافات الغربية للبحر الأسود. . بانوراما يعاين المرء فيها تاريخ آل عثمان الذين قدر لهم أن يمضوا بعقيدة التوحيد فيدقوا بكلماتها أبواب فيينا. .

الحزن والفرح يتعاقبان على وجدان (السائح) وهو يمس المرئيات بشغف، كتعاقب الليل والنهار... كالشمس التي تشرق متألقة لحظات ثم ما تلبث الغيوم السوداء أن تغيبها في الظلمة... فتكافح لكي تطل من جديد على الموجودات والأشياء... على صفحة البحر التي تتلامع وهي تمتص الشعاع بشغف عجيب.

(أحمد عبد القدوس) الدليل الشاب الذي يتميز بذكاء مدهش وثقافة واسعة وإيمان عميق بالحقيقة الإسلامية للتاريخ التركي.. بجوهره الإيماني الصلب الذي يظل قديراً على الإشعاع رغم كل محاولات الطمس والتفتيت، يحدثنا بتدفق عن كل المعالم والأشياء.. ويجيب بسرعة بديهة ممتزجة أحياناً بروح الدعابة... وأحياناً أخرى بالسخرية المريرة... وثالثة بالتمني المترع بالشوق لليوم الذي يستعيد فيه الأناضول وجهه الضائع... فيمنح الرحلة طعماً أكثر عذوبة، ويحفر في الذاكرة صورة جيل جديد من الأتراك يتمرد على الزيف، ويكافح من أجل استعادة هويته المضيعة والخروج من الحصار لمعانقة كل ما هو إسلامي جميل في العالم.

إذا كان من حق الابن الضال أن يرجع إلى أبيه وأمه... أن يجدهما ويتشبث بهما.. فأحرى بالأبناء البررة أن يفيئوا إلى خيمة الله ورسوله التي نفوا عنها طويلاً... أن يسترجعوا كل ما استلب منهم في زمن الفصام النكد بين الدين والدنيا.. بين الحاضر والتاريخ.. بين الابن وأمه وأبيه... باختصار لا اختصار بعده: بين الله والإنسان.

قبل أن ندلف إلى المركب الذي ينتظرنا في نقطة ما عند ساحل البسفور الغربي، تقلنا الحافلة عبر شوارع إسطنبول.. ونحن نجتاز أسوار القسطنطينية العتيقة التي يغطيها الدخان والطحلب الأخضر الغامق.. يشير الدليل بكلتا يديه إلى جانب من السور.. يقول وملامح الحزن والرضا تتعاقب في عينيه: هاهو ذا!!

بحركة نصف دائرية تلامس أعيننا حافات السور وحجارته الصماء لكي ما تلبث أن تستقر عند الفتحة التي تمرق منها الحافلة، فإذا بنا بعد لحظات قبالة (القرن الذهبي) الذي تضرب مياهه بهدوء الكتل الصلدة السوداء الموغلة في الأعماق.

ثمة حاجز من السلاسل الحديدية يصعب اختراقه.

يقول الدليل وهو يشير إلى ضفتي القرن ثم يواصل:

فيما وراء الحاجز يمتد القرن الذهبي لكي يحمي بمياهه العميقة وجه القسطنطينية المطل على آسيا.. محاولة الاختراق البحري بالسفن العثمانية لإحكام الحصار كانت مستحيلة.

أكثر من راكب يتساءل: ما الذي حدث؟ وهو يخمن في نفسه أن ثمة معجزة ما.. عجيبة من العجائب.. مغامرة من تلك المغامرات المدهشة التي تغير مجرى التاريخ.. قد حدثت.. ولكن كيف؟

ويقول أحمد عبد القدوس:

كان على السلطان الشاب أن يجد طريقة ما لنقل السفن إلى الجانب الآخر من السلاسل.. قبالة الأسوار.

ومرة أخرى يرتفع السؤال: كيف؟

يرد الدليل وهو يركز عينيه الغائمتين في نقطة ما من الفضاء الأزرق اللامتناهي:

في الليل جاءه رسول الله ﷺ.. وقف قبالته وجهاً لوجه وقال له وجلال النبوة يشع من كلماته:

يا محمد.. ليس ثمة طريق واحد إلى القسطنطينية.. هنالك طرق أخرى.. أمامك البر... فالبحر ليس هو كل شيء.

استيقظ مندهشاً.. كان يملك خبرة جيدة بهندسة الحرب.. ومع الخبرة إصرار إيماني كحد السيف على المضي إلى هدفه مهما كان الثمن..

البعض يعرف ملحمة السفن التي اجتاز بها الفاتح سلاسل التلال المطلة على القرن الذهبي فيما يشبه المعجزات.. ويعرف كيف أن البيزنطيين.. استيقظوا يوماً لكي يجدوا الأسطول الإسلامي يحكم حصاره على الأسوار وأن القسطنطينية تؤذن بالسقوط..

البعض يعرف هذا.. لكنا ما كنا نعرف هذه الرؤيا الصادقة.. ما كنا نعرف أن الرسول المعلم ﷺ.. أعطى الإشارة.. همس في أذن الفاتح بكلمة السر التي وضعت بوابة أوروبة الشرقية بين يديه..

ويقول الدليل وعيناه لا تزالان معلقتين في سماء الله الكبيرة:

كان قرار السلطان لا رجعة فيه... ووقف عبر اللحظات الفاصلة

التي تسبق الهجوم الحاسم الأخير لكي يطلق صرخته المعروفة (إما أن آخذ القسطنطينية أو أن تأخذني).

أحس برجفة تسري في جسدي كما لو أنني أتلقى تياراً من الكهرباء.. ويقيناً، أقول في نفسي، إنهم جميعاً.. كل الأخوة في الحافلة يتلقون الهزة نفسها.

إن محمداً، السلطان الشاب، يضع نفسه الآن، هذه اللحظة بالذات قبالة الله ورسوله، إزاء كل آبائه وأجداده الذين ضحوا وقاتلوا واستشهدوا لاختراق الجدار الأخير...

إن عبء ثمانية قرون... منذ لحظة استشهاد أبي أيوب الأنصاري وهو يتشبث بأعالي السور لاقتحامه.. وحتى لحظة الرؤيا المعجزة تلك، يضغط على السلطان الشاب.. وعليه أن يقبل التحدي..

ويقول الدليل:

كان على الفاتح أن يعطي خمسين ألف شهيد قبل أن يحقق حلمه هذا.

تتباطأ الحافلة وهي تنحدر باتجاه الكورنيش.. لكي ما تلبث أن تفرمل قريباً من المركب السياحي الذي سيجتاز بنا البسفور..

نأخذ أماكننا متحلقين حول مناضد دائرية، ونوافذ المركب مفتوحة على مصراعيها قبالة إسطنبول الآسيوية إلى اليمين، وحافات أوروبة إلى الشمال.. ينطلق المركب والنسمات الدافئة تلفح وجوهنا محملة بالشعاع ورائحة البحر الرطبة المنعشة.. وخلال لحظات يجد المرء

نفسه إزاء الموروث التاريخي المترع.. والوعد الذي ينطوي على السر والحلم..

عيناي تعجزان عن ملاحقة كل المرئيات والظواهر والأشياء، فأجدني بعد كفاح مرير مرغماً على الرضا بالقليل.. بشواهد مبعثرة من هنا وهناك.. يتمنى المرء لو يقف طويلاً عند كل أثر.. لو يجوس في منحنياته وشرايينه ويستمع مباشرة إلى أصوات الموجودات ذاتها وهي تحكي عن كل شيء، لكن هذا مستحيل ولا بد من الاستسلام للأمر الواقع..

والمركب يمخر في مياه البسفور.. والدليل خشية أن يفلت منه شيء مما يمكن أن يقوله يسارع بالإشارة من إصبعه إلى المرئيات البعيدة متحدثاً عنها بالإيجاز الذي يسمح به الوقت: قصر دولمة باغجة المطل على حافات البسفور الشمالية حيث قتل السلطان عبد العزيز.. قصر يلدز الذي جعله السلطان عبد الحميد إلى الداخل قليلاً من أجل أن يكون أكثر أمناً.. معمل الزجاج الذي بناه الأسلاف والذي حوله الأخلاف إلى مصنع للخمور.. المدرسة العسكرية.. مصانع السلاح.. المعهد الذي بناه النصارى عند أعلى قمة للرد على ضياع القسطنطينية وتخريج أجيال من الأتراك المهجنين سيقدر لهم أن يطمسوا لبعض الوقت ترسانة القيم وفتح المزيد من الثغرات في جسد الأمة المهزومة.. قصور فارهة وأملاك لا يحصيها عد لأثرياء اليهود الذين حملتهم الموجة المضادة إلى فوق.. بينما نزلت بأبناء البلد أنفسهم إلى القاع.

ثلاثون مليون دولار!

يقول الدليل وهو يشير إلى أحدها. . والمركب يمضي إلى هدفه باتجاه الساحل الغربي للبحر الأسود. . والدليل ينفجر حماسة وذكاء وإيماناً وهو يلاحق المرئيات ذات اليمين وذات الشمال في محاولة للحديث عن المزيد من التفاصيل والذكريات.

المتاحف والأبراج. . الحدائق الأنيقة والمتنزهات. . الطرق الملتوية والشوارع الفارهة. . . الوقائع والأساطير. . الهزائم والانتصارات. . والأفراح والأحزان. . تتكاثف بشكل مدهش لكي تجعل هذا الشريط الضيق يحكي عن كل شيء في وطن يمتد في المكان عشرات الآلاف من الأميال، وتاريخ يوغل في الزمن لما يزيد عن ألف عام. .

يصمت أحمد عبد القدوس للحظات. . ثم ما يلبث أن يقول وهو يشير إلى قصر متواضع يطل على الساحل الأسيوي للبسفور. .

هاهو ذا منفى السلطان عبد الحميد وسجنه الأخير الذي توفي فيه.

يزدرد ريقه بصعوبة وهو يواصل:

آخر العمالقة كان السلطان عبد الحميد. . بعده بدأت التداعيات والانكسارات. . ولم تتوقف أبداً. . . حتى جعلت إسطنبول نفسها بساطاً لدنس اليهود واليونانيين والإنكليز. . وفلسطين موطأ لأعداء الله والإنسان. .

وأقول للدليل محاولاً أن أدفن حزني في طبقة عميقة من الوجدان. . متذكراً في الوقت نفسه احتفاليات الرفاهيين في استاد (عصمت اينونو) وافتتاحية النورسيين في قاعة (مصطفى كمال).

لكنهما سيعودان يا أحمد.. سيعودان بمعونة الله!!

ويتساءل أحمد مندهشاً: من؟

أجيبه وأنا أسرح في البعيد: الجد الفاتح والحفيد المعزول.

٧

تنفجر في الأحاسيس والوجدان، بإيقاعها الصارم وعذوبتها المشجية المترعة بالحزن.. بالحلم.. بذكريات عصر القوة والفتح، وتداعيات الهزائم والانكسارات.. بكلمة الله التي تزيل الحواجز وتفتح المغاليق.

منذ زمن بعيد وأنا أستمع من العائدين من إسطنبول عن هذه المارشات المؤثرة... العروض الموسيقية التي تختصر بفيزياء الصوت الجميل والإيقاع الموزون، تاريخ بني عثمان، لكن أن تجد نفسك قبالتها تماماً... شيء آخر.. يجعلك تفرح وتحزن.. تهدأ وتثور.. وتضحك وتبكي..

(المايسترو) لا يعطي إشارة البدء التقليدية بعصاه للعازفين كما هو الحال في الكونسير حيث تقام الحفلات السيمفونية.. هاهنا أيضاً ثمة الأصالة والتميز الذي يمنح الممارسة الجمالية وجهها الإيماني الأصيل.

ينظر إلى أفراد جوقته بعينين ثاقبتين وهو يضع إحدى يديه على حزامه التركي المرصع ويمسك بالأخرى عصا التوزيع... حتى إذا

اطمأن إلى استعدادهم رفع كلتا يديه.. قبالتهم تماماً.. أنصت للحظات وهو ينقل عينيه في وجوههم لكي يزداد اطمئناناً ثم يهتف.. يا الله!!

فما تلبث الآلات أن تصرخ.. ويتدفق الصوت كالشلال.. وحيداً حيناً، متداخلاً مع الأناشيد التركية العذبة حيناً آخر..

وأنت تنصت للعازفين تجد نفسك مع الآباء والأجداد.. وهم يخترقون أوروبة على صهوات خيولهم.. المنتصرة حيناً، أو يدافعون عن شرف الإمبراطورية قبالة الروس والمجريين والصرب والبلغار واليونان حيناً آخر.. ومع كل مارش جديد تكون البداية نداء (يا الله) يرفعه الموزع قبالة أفراد جوقته.. وأقول في نفسي وأنا لا أملك مشاعري من مدافعة سيال الحزن والشجن المنسرب حتى الشرايين... آه لو أن كل ممارسة في حياتنا، كل خطوة أو فعل أو إنجاز تبدأ بـ (يا الله) هذه.. إنها حجر الزاوية وبدء الطريق الصاعد إلى الإحسان والإتقان اللذين ألزمنا بهما رسول الله ﷺ فمكننا من قيادة العالم وتغيير خرائط الدنيا.. ثم يوم أن تراخت أيدينا وعقولنا وضمائرنا منها انحدرنا إلى القاع..

والموسيقا تصرخ.. والأخوة المنتشرون عند حافات الباحة المقابلة للمتحف الحربي ينصتون بشغف وتأثر.. بعضهم يحاول أن يمسك دمعة أو دمعتين تحاولان الفكاك من الأسر.... لكنه يقاوم.. آخرون يجترون أحزانهم في طبقة موغلة في الوجدان.. لا تكاد ملامحهم تنبئ بشيء.. لكن هؤلاء وهؤلاء يظلون وهم ينصتون لهدير الطبول

والأبواق.. أسرى السؤال المعذب الذي لا يرحم: لماذا؟

ولن يكون الجواب بعيداً.. لن يكون عسيراً.. أقول في نفسي.. فليس ثمة سوى أن نبدأ كل شيء في حياتنا بـ (يا الله) لكي لا نعرف طعم الهزائم ونتجرع مرارتها كرة أخرى.

فجأة أجدني إلى جوار الأخ سنقر.. أضع يدي على كتفه بحنان وأقول له: ها قد آن الأوان لكي أتلقى منك الجواب على السؤال الذي ألح علي طويلاً.

كانت المارشات قد توقفت.. عاد العازفون والمنشدون بحركتهم العسكرية المعهودة.. وراء (قائدهم) لكي ما يلبثوا أن يغيبوا في ردهات المتحف العتيق.

ينظر إليّ سنقر بدهشة فأقول:

- حدثني أيها الأخ كيف كان يصلي؟

يسألني بالدهشة نفسها:

- من؟

- من يكون غير الشيخ بديع الزمان؟

يجمع سنقر كل قدراته العقلية والوجدانية والحسية لكي يتذكر.. يسترجع الخبرة ويجيب عن السؤال، ثم ما يلبث أن يجلس على الأرض حانياً ركبتيه واضعاً يده اليمنى على إحداهما:

- هكذا..

يقول سنقر وهو يضم أصابع يديه بعنف ويرفع السبابة التي كانت ترتجف قليلاً:

عندما كان النورسي يصعد صلاته باتجاه الذروة، لحظة رفع التحية الخاشعة الواثقة، المطمئنة، المنطوية على المحبة.. والتسليم لله... عندما كان يسلم على رسول الله... كان ينتزع الحروف من أعمق نقطة في قلبه.. يتنقل بها في شرايين الوجدان مصعداً بها صوب التراقي واللهاة لكي تتحول إلى صوت مسموع.. ومن أجل ذلك، ولكونه يستدعي الحرف من مكان بعيد.. بعيد.. ويمضي به إلى فوق في رحلة الوجد والمعاناة.. في حركة التسامي الروحي الصعبة بين الباطن والظاهر، ومن أجل أن يكون أكثر صدقاً مع نفسه.. ومع الله ومع رسوله.. من أجل أن يرفع إليهما قدر المستطاع كل ما يعتمل في نفسه من شوق وعشق ولهفة وتوق وهيمان وتشبث بالمحبوب، من أجل أن تكون تحياته كفؤاً لجلال الله.. وإسداء أميناً لأفضال رسوله عليه أفضل الصلاة والسلام.. من أجل هذا كله كان ينطق الحرف الواحد.. يرسم الكلمة الواحدة على شفتيه ببطء محاولاً أن يمد المسافة بما يجعلهما تقولان كل ما عندهما.

أسأله وأنا أكافح لوقف سيال الدمع بعد إذ رأيته هو نفسه يبكي وهو يتذكر الأستاذ، ويحاول بصعوبة بالغة أن ينقل طريقته المستحيلة:

ـ كيف كان ذلك يا سنقر؟

ـ يصعب علي إذا أردت الحق أن أصور لك الأمر كما كان يتحقق بالفعل لحظة كان الأستاذ يرفع (تحياته) ولكني سأقربها إليك...

يقرأ سنقر التحيات وركبتاه لا تزالان مطويتين، وقبضته مكورة وسبابته ترفع شهادة التوحيد وهي ترتجف:

(التحيات لله.. التحيات لله والصلوات والطيبات.. السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته..).

هاهو ذا يحاول، بصعوبة بالغة.. أن يقلد أستاذه فيمط الأحرف والكلمات وهو ينتزعها من قلبه انتزاعاً لكي يمحضها الصدق والعشق.. والرجاء... ترى.. هل قدر سنقر على أداء المهمة؟

هل أجاب عن السؤال؟

كل ما أعرفه أنني رأيت نفسي، عبر تلك اللحظات المشحونة.. أكتشف ربما لأول مرة كم تنطوي الصلاة الإسلامية على طبقات شتى من حلاوة الروح وطعومها وجمرها... وتوقها وهيامها وتعلقها بالمحبوب.. وكيف تكون «التحيات» بحق ذروة التصعيد.. البؤرة التي تجمع فوتونات الروح المتدفقة.. وأشعتها المتلألئة في نقطة واحدة.. تعرف كيف تحرق وتضيء في الوقت نفسه...

أتذكر ما قاله الصديق الناقد الدكتور بسام ساعي في أكسفورد قبل ست سنوات وهو يتساءل عن ذروة الصلاة، ثم ما يلبث أن يجيب:

«التحيات» حيث يجد المسلم نفسه في نهاية الرحلة، وجهاً لوجه قبالة جلال الله وحضور رسوله المعلم، فيرفع إليهما التحيات وهو يتذكر ويرى بأم عينيه آلاف المنح والمنن التي قدماها لكل المسلمين في العالم.. وآن لها أن تتلقى بالشكر والعرفان..

٨

في دعوة عشاء، في المبنى الجديد لجريدة (الزمان) أجلس على غير اتفاق إلى جوار الدكتور عبد الودود شلبي.. مستودع ذكريات هذا الرجل.. يجوس بك في مرارة الخمسينيات (حيث اعتقل مرتين) ووجعها وعذابها.. وهو يضحك.. يرغمك على أن تضحك معه، لكنه لن يكون بمقدوره أن يكفك عن تلقي رشقات التعاسة كزخات المطر الأسود، رغم أنها قادمة من عصر بعيد.. أربعين عاماً أو تزيد..

أمسك بي من ذراعي كعادته وقال:

ـ اسمع سأحكي لك (نكتة).. طرائف مما عشته في اليوم الأول لدخولي (الليمان).

يتدفق حديثه كالشلال فلا يوقفه أحد.. قال:

ـ ربطوا على رسغي قيداً يشدني إلى سجين آخر ضخم الجرم.. صدر الأمر في أن نيمم وجوهنا صوب آخر نقطة في فناء الليمان، عند جداره البعيد.. جاءنا هناك حلاق، يمارس مهمته بآلية ودعت ارتباطها بالوجدان البشري منذ ملايين السنين.. قص شعر رأسي عن آخره... وضعه بعنف في قبضة يدي وضغط على الأصابع.. أردت أن أتساءل لكني آثرت الصمت.. التساؤل في الليمان جنحة... جناية.. قد تتحول في أي لحظة إلى جريمة تتلقى عليها أشد العقاب.. فعل بصاحبي ما فعل بي.. دفعنا بعنف صائحاً:

ـ هيا إلى الطرف الآخر يا أولاد الكلب..

ابتعدنا قليلاً... في البدء كنا نمشي على مهل. يفاجئنا سجان بسوطه الذي يلسع ظهري كالسكين:

ـ ركضاً يا أولاد الكلب، وحذار أن تسقط من يديكما شعرة واحدة.

عرفنا أيضاً، أن علينا ونحن نركض، منقطعي الأنفاس، صوب الطرف البعيد، أن يردد الواحد باستمرار: «أنا وسخ.. أنا وسخ.. أنا وسخ.. أنا وسخ..».

في الجهة الأخرى كان سجان ثان في الانتظار.. طويلاً كجذع نخلة موغلة في السماء.. يصعب عليك وأنت تقف إزاءه أن ترى آخره، وأن تلمح وجهه لكي تقول له كلمة وتعرف بالضبط ما الذي يريد!

بعد لحظات، ونحن نكافح لالتقاط الأنفاس، عرفت بقوة الإيحاء الدامي ما الذي يريده.. ثمة تعاليم وممارسات في الليمان تفصح عن مفرداتها حتى قبل أن تسأل عنها.. لكأنها تقاليد متفق عليها قادمة من آلاف السنين.. طقوس تحمل طابع القدسية، ولن يكون بمقدور أحد إلا أن يتعامل معها باحترام.

فتحنا أيدينا التي انطوت أصابعها المتعرقة على خصلات الشعر.. (تعظيم سلام) يترافق زمنياً مع عبارة (تمام يا فندم).. أي خطأ في التزامن هذا.. أي نقص في الشعر الذي انفتحت عنه الأصابع

المتشنجة.. يجعلك تتلقى سوطاً.. وأسمعه يقول راضياً كما لو كان الصوت يجيء من مكان بعيد:

ـ يا أولاد الكلب..

بإشارة منه نتجه إلى الزنزانة.. كوة في جدار عتيق تتقاطع في فوهتها قضبان الحديد.. نجر أقدامنا إليها جراً.. ندخل... الظلام يطبق على الثغرة التي سنمكث فيها.. ليس ثمة ثقب واحد في الجدار الرطب، المتعفن.. يتسلل منه الضوء.. لو كان زريبة للحيوانات لكانت أكثر احتفاء بنا.. أتذكر أن الإنسان في حالات كهذه، ومن أجل ألا ينسلخ عن آدميته.. ألا يفقد أبعاده البشرية ويصير شيئاً آخر.. فإن عليه أن يتشبث بالأمل، أن يمسك به بشدة.. أن يتكور عليه كما تكورت أصابعنا على نثار الشعر المقصوص.. أقول للشخص الذي شد معصمه إلى معصمي.. والذي جمعتني به الأقدار على غير موعد:

ـ اصبر فإن الصبح قريب.

كان المسكين قد انزلق، وهو يسير على حافة السيف.. صوب الجانب الآخر المعتم الذي لا ينطوي على شعاع واحد في ملكوت مشبع بالقهر والقدم.. والظلام.. كان قد صار شيئاً آخر.... أي شيء إلا أن يكون ذلك الإنسان.. الذي يحمل اسماً ما.. والذي منى نفسه أو حلم بيوم سعيد.. يوم يصير فيه للمؤمنين بالله ورسوله مكان في هذا العالم...

صرخ صاحبي وهو يتميز غضباً:

ـ أي صبح هذا يا بن الكلب.. إنني أراهنك على أننا لن نبقى حتى طلوع الشمس..

هاهو ذا إذاً يدخل دائرة الطقوس التي لا ترحم.. بالصراخ نفسه.. وبمفردات السجانين أنفسهم.. فلا حول ولا قوة إلا بالله...

انظر إلى (شلبي) وهو يضحك، متعمداً أن يجعل اليوم الأول لاعتقاله طرفة تروى.. من جهتي كنت قد انفصلت عنه تماماً.. وتساءلت فيما بيني وبين نفسي، كما كنت أتساءل منذ أربعين سنة.. منذ بدأت أعي ما يجري في أرض الله: بأي حق يتم هذا كله؟ أي شريعة وأي قانون؟

السؤال لا مبرر له لأن العصر الحديث أجاب عليه... بالنيابة عنا.. لكن السؤال يظل يضغط على أعصابي كلازمة كابوسية مترعة بالإلحاح والتكرار..

أتخيل براءة شلبي.. الذي تخرج قبل سنة واحدة من الجامعة والذي كان يحلم بيوم سعيد.. من منا لم يحلم بهذا اليوم.. اليوم الذي لا يعبد فيه إلا الله وحده.. ولا يتلقى الإنسان فيه إلا أمر الله وحده.. اليوم الذي يعود فيه الوفاق المفقود بين الإنسان والعالم والأشياء والسموات والسدم والنجوم والأشجار والأنهار والشلالات والخلائق والأمم والشعوب.. وبين الله..

أتذكر أيضاً أن الجملة العصيبة التي تشكل فكر بديع الزمان.. نبضه

وجوهره الذي تؤول إليه كل الرسائل والكلمات التي كتبها في مدى عمره كله.. وحوكم من أجلها ثلاثين عاماً.. وتغرب.. ونفي... هي هذا الحلم نفسه: أن يعود الوفاق..

لست أدري لماذا تجعلني حكاية (شلبي) أرجع في الزمن سريعاً إلى الوراء.. إلى الملاعب الرومانية التي كان أباطرة روما ومقربوهم يتسلون في شرفاتها العالية بما يجري في الساحة قبالتهم تماماً.. بين العبيد والعبيد... وبين هؤلاء والأسود التي جوعت لكي تخرج فتفترس العبيد... والإمبراطور وحاشيته (فوق) يتسلون بالدم وهو ينبجس هنا وهناك.. بالقتل الدموي.. الذي يصير هواية تزيل آثار الملل والإعياء عن الإمبراطور.

ما الذي يجعل ساحة الليمان بعروضها المدمرة لكرامة الإنسان وآدميته تختلف بشيء عما كان يجري في ساحات روما؟ ما الذي حدث..؟

القوط والهون والوندال يتدفقون كالجراد على روما فيجعلون عاليها سافلها، وهاهو الجراد اليهودي يتدفق على سيناء والضفة والجولان، بعد سنوات فحسب، حيث لم يتحرك أحد لوقف العرض الإمبراطوري.. في الليمان... وحيث كان الجميع يصفقون للإمبراطور.. لكي يقضم الجراد الأرض المخضرة فيجعلها حطاماً..

من عجب أن يطلب من (شلبي) وهو يحكي طرفته هذه فيدفع المتحلقين حوله للضحك.. إلقاء كلمة ختام على مائدة العشاء..

ينهض الرجل.. قديراً في جزء من لحظة على أن يتحول إلى الجد وأن يلقي كلمته المؤثرة.. ثم يرجع.. وفي جزء من لحظة أيضاً يواصل المتحلقون حوله الضحك العميق..

أشرد مرة أخرى.. أتذكر لاعب كرة القدم الهولندي المعروف (رينسنبرنك) الذي ينطلق بالكرة بأقصى ما يستطيع مخترقاً خطوط الخصم، حتى إذا ما حوصر، تحول بسرعة البرق على زاوية مئة وثمانين درجة، باتجاه مغاير تماماً، متشبثاً بالكرة، محاولاً تسليمها بأمان إلى أحد زملائه.

(شلبي) يملك القدرة نفسها.. ولكن في ساحة أخرى... ومن يدري فلعله كان يعرف مسبقاً أن ما سيقوله عن يوم اعتقاله لم يكن طرفة أو نكتة بكل تأكيد، وأنه ينطوي على الجد المحض، وعلى الحزن العميق الذي يعرف كيف يضم جوانحه عليه.. ومن ثم جاءت الكلمة التي ألقاها منهياً مائدة العشاء... استمراراً عفوياً للتعاليم التي تلقاها هناك... والتي جعلته يدخل السجن بعدها مرتين، وهو قدير على الاحتفاظ باليقين الموغل الذي أفلت يومها من قبضة صاحبه، فسلخه من جلده مخلوقاً لا ينتمي في نهاية الأمر إلى فئة الإنسان.

٩

يصعب على المرء أن يفارق الأخوة والأحبة دون أن تسقط لحظات الوداع في غوره البعيد حجارة الحزن وزخات الأسى.. في لحظات كهذه يجد المرء نفسه دائماً قبالة السؤال المكشوف. بأكثر مما

يجب.. الحاد كالنصل، الواضح الذي يلح بانتظار الجواب.. ترى هل سيقدر لنا اللقاء كرة أخرى؟!

هانحن ذا نعود إلى الأهل والعشيرة.. ولكنا سنترك هنا في إسطنبول الأخوة والأحبة.. واحدة بواحدة، والسؤال المعذب يظل يدوم يبحث عن جواب...

نؤدي صلاة الجمعة في جامع السلطان أحمد ذي العمر الموغل في الزمن، والزخارف اللامتناهية... والبلور الذي يحكي بلغة اللون توق الإنسان المسلم إلى (السدرة) التي صعد برسول الله إليها في معجزة المعراج فغشيته ألوان لا يدري ما هي!!

إن المسجد الإسلامي لا ينفتح على مملكة الروح فحسب.. ولكنه يطرق أبواب العقل والحس، كذلك.. لكي ما يلبث أن يضع الإنسان المسلم قبالة أعجوبة الخلق الكوني.. بأبعاده الثلاثة كاملة.. الروح والعقل والحس.... وهي تنبض بعشق الله...

ما أحب أن أسميه دائماً: الصوت التركي.. يتصادى متناغماً، عذباً حزيناً.. في جنبات المسجد فيغسل رين الروح وصدأ الفؤاد ويمحض الإنسان أكثر قبالة الله... يجعله أكثر تطهراً ونقاء..

نغادر الجامع لكي ما تلبث السيارات أن تقلّنا إلى المطار...

الغيوم الداكنة تذرع جنبات الأفق البعيد.. والسماء تسح مطراً.. والسيارات تنطلق كالسهم عبر الشوارع الفارهة...

أكافح لكي أحيّد إحساسي، فأنا لا أدري على وجه اليقين إن كنت

فرحاً سعيداً بالعودة إلى بلدي وأهلي، أم مهموماً حزيناً لفراق الأخوة والأحبة...

يمضي أكثر من ساعة وأنا أتأرجح في منطقة الحياد هذه.. ولكن عندما أمد يدي بلهفة لاحتضان المودعين.. عندما أجد أيديهم تشد على يدي بحرارة وتحتضنني بلهفة هي الأخرى... عندما يصل الدور إلى أخي (إحسان) لا أملك نفسي من الانحياز صوب حافات الحزن والأسى، وأنا أسمعه يقول وهو يحبس الدموع في عينيه، مربتاً على كتفي بمحبة:

في وداعة الله!!

١٠

هنا أنا ذا ألتقيك مرة أخرى

يا إسطنبول

بعد ثلاث سنوات من الفراق

ألتقيك مرة أخرى

أمد يدي إلى ينابيعك الثرة محملاً بالشوق والعطش

لكي أبل ريقي

فما أزداد إلا شوقاً وعطشاً

تتداخل المرئيات أمام عيني فأكاد أضيع

أريد أن ألمس كل شيء.. ألثم كل شيء... ولكنها تتفلت مني..

في الرحيل عبر البسفور يطل عليّ التاريخ

فما تلبث الفواصل بين الزمن والزمن أن تذوب

معها تغيب الحدود.. التي تفصل مكاناً عن مكان

وأجدني فجأة محملاً بالتوق الذي يخترق الدنيا للوصول إلى حافتها القصية

يجتاز اللحظة الراهنة... موغلاً في الماضي..

مكافحاً من أجل أن يجعل ما هو كائن

هو نفسه ما كان.. وما سوف يكون

هاهي ذي قصور بني عثمان..

تتوجع متشكية من الوحشة والفراغ..

في يوم ما كانت الدنيا كلها هاهنا على ضفاف البسفور..

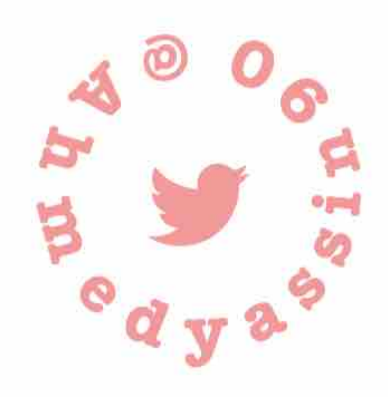
البهجة والفرح والوعد الذي يمنح عطاءه بسخاء عجيب

وكان الناس يجيئون من مشارق الأرض ومغاربها..

مؤملين أن يرووا ظمأهم إلى العشق الذي يختزل حيثيات الزمان المكان

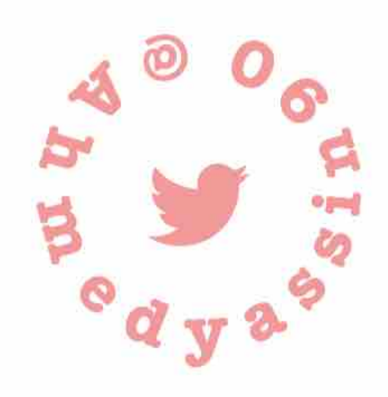
ويحمل كلمة الله إلى الإنسان في قارات الدنيا

فهل ستستردين دورك الضائع وتعيدين الكرة يا إسطنبول؟


@Ahmedyassin90



الرحيل
إلى مكة .. والمدينة


@Ahmedyassin90

١

عندما يجيئك النداء.. وقد استكملت الأسباب، عليك أن تلبي... وإلا فإن الأمر الإلهي قائم لحظة يشب الإنسان عن الطوق... ولكن العوائق كثيرة، وهي في معظم الأحيان فوق الاستطاعة، وحينذاك يضطر المرء إلى الانتظار.

ولقد انتظرت طويلاً.. وما بين عام ١٩٦٦م حيث حزمت الحقائب ونويت الذهاب، وعام ١٩٩٨م حيث استجبت للنداء... أكثر من ثلاثين عاماً جرت عبرها أكثر من محاولة.. ولكن لم يكتب لأي منها التوفيق.

العوائق كثيرة، وقطار العمر يجري.. وثمة خوف من أن تصل المحطة الأخيرة دون أن تكون قد لبيت النداء.. ما الذي ستقوله حينذاك لله ورسوله؟

وهكذا، وفي اللحظة التي انفتح فيها الطريق عزمت متوكلاً على الله، ونادت كل حجيرة في روحك التي تلاشى فاصل الألم بينها وبين العالم: يا الله! وقلت في نفسك: هذه رحلة ليست كالرحلات، تتمحض لها نفسك وروحك، فإنها الفرصة المتفردة التي منحها الله سبحانه عباده كافة لكي يغتسلوا ويتطهروا ويعودوا كيوم ولدتهم أمهاتهم، وقلت أيضاً: إن الكرم الإلهي لا حدود له، والسعيد السعيد هو من يعرف كيف يتلقى الهبة ويتخذها نقطة دفع وانطلاق إلى الأعلى.. وإن المؤمن مشروع دائم للاجتياز والصعود.. وأن

هذه... هذه بالذات، قد تمنحه الكثير في رحلة الطموح الذي يليق بمطالب الإيمان.

كنت قد اعتمرت ثلاث مرات.. مرتين في عام ١٩٨٠م والثالثة بعدهما بعشر سنوات.. ولكن الحج تجربة أخرى غير العمرة... أكبر وأثقل وأكثر امتداداً في الزمان والمكان والخبرات.. وإذا كانت العمرة لقمة عذبة سائغة المذاق، فإن الحج هو الوجبة الدسمة بكل ما تنطوي عليه من أطايب وصنوف!!

ومع ذلك فلقد هزتني رؤيتي للكعبة، أول مرة، حتى الأعماق، ولقد بكيت يومها كثيراً.. انتابني إحساس من يجد نفسه فجأة قبالة الحلم وهو يتحقق كثيفاً، ملحوظاً، مؤكداً.. يملأ السمع والبصر والوجدان. وكان الطواف سيالاً روحياً غسلته دموع العين.. فشف الوجد وأصبح للحظات نقياً كالبلور.. ولم أكن أحس وأنا أدور حول الكعبة بأنني أمشي على الأرض ولكنني كنت أطير.. محمولاً على ألف جناح وجناح منسوج من خيوط الأشواق..

الشيء نفسه يتكرر وأنا أضع خطواتي الأولى في مسجد رسول الله... أعطني قلباً يتسع لأحزان الكون كله.. يا إلهي... قلت في نفسي وأنا أحس بوجع في قلبي لم يستطع سيل الدموع أن يخفف قبضته التي اعتصرته بقوة.. كنت كمن يكافح للانطلاق من أسر الجسد.. وهيهات.. وهناك قبالة قبر رسول الله ﷺ.. استجمعت شتاتي وللحظات، وأنا أخاطبه.. وأجهش بالبكاء.. أحسست أنني أتطهر حتى الأعماق وأتوحد ثانية قبالة كل أحزان العالم.. وقلت في

نفسي: هنا بمقدور الإنسان أن يتحقق بالحرية، فليس ثمة بعدها خوف أو حزن.. وقلت أيضاً.. إن عطايا رسول الله ﷺ.. كثيرة.. كثيرة جداً.. وهذه إحدى عطاياه.. ورحت أردد.. والوجد يتقاذفني: عليك أفضل الصلاة والسلام يا رسول الله... عليك أفضل الصلاة والسلام.

٢

انطلقت الحافلات الثمانية في صبيحة يوم غائم.. من أحد الأحياء الغربية لمدينة الموصل... كان الطريق البري طويلاً وإجراءات الأمن والتفتيش على الجانبين العراقي والسعودي معقدة صعبة.. ولقد استغرق ذلك ستة أيام بلياليها لاجتياز طريق لا يتجاوز الثلاثة آلاف من الكيلومترات.. اضطررنا عبرها للمبيت في البراري... ومدن الحجاج.. كأنها محاولة لاختبار قدرتنا على الصبر قبالة ألف نداء ونداء يومض من بعيد.. يدعونا لكي نبل الأشواق الملهوفة لمسجد رسول الله ﷺ وبيت الله الحرام.

لكن ما كان يخفف من هذا كله، ذلك الانسجام والتوافق بين ركاب الحافلة الثلاثين، والتزامهم المدهش بسلوكيات الحج وأخلاقياته، رغم صدور نغمة نشاز، بين الحين والحين، تنفلت من هذا الرجل أو ذاك، لكنها ما تلبث أن تخفت وتغيب لكي لا يتبقى في جل مساحات الطريق الطويل إلا التوافق، والمحبة، والعطاء، والانسجام.

وكنت أقول لجاري في الحافلة، الطبيب الذي كان مغرماً (بقزقزة اللب) للاستعانة به على طول الطريق:

عجيب أمر هؤلاء الذين يهدرون فرصة العمر بكلمة نابية أو سلوك معوج أو استجابة ملتوية لإغراءات الأثرة على حساب الآخرين.. ترى ما الذي سيضيفه إليهم الحج سوى (اللقب) الذي يبدو أنهم جاؤوا خصيصاً للحصول عليه والعودة به إلى ديارهم حيث تمارس الخطيئة المزدوجة بحق أنفسهم.. وبحق الآخرين تحت غطاء اللقب الجميل... هذا فضلاً عما هو أدهى وأمر... إعطاء الإشارة للعقارب والحيات من خصوم هذا الدين للطعن في قدرته على تهذيب النفوس!

كنت ألحظ الحزن والأسف على ملامح معظم الركاب وهم يصدمون بين الحين والحين بنماذج كهؤلاء.. وكنت أسمعهم يرددون بينهم وبين أنفسهم: لا حول ولا قوة إلا بالله، متحصنين بقوة إيمانهم ضد كل إغراءات الشيطان التي تنفخ في الدم والأعصاب نار الرغبة في الرد العنيف الغاضب على هؤلاء الذين لم يقدروا على تجاوز أسر الرفث والفسوق.. والجدال، وهم ذاهبون لأداء فريضة العمر وفرصته الفريدة..

قبالة أولئك كان ثمة صنف آخر من الذين محضهم الإيمان للود والمحبة والبر والعطاء.. كانت البسمة الحانية تغمر ملامحهم، والكلمة الطيبة معلقة على شفاههم.. وكانت أسعد اللحظات هي تلك التي يتقدمون فيها لإسداء خدمة أو معونة.. أو حل مشكلة.. أو تقديم لقمة طيبة لهذا المسافر أو ذاك.

لقد تحقق هؤلاء بمطالب الحج قبل أن يحجوا، أما أولئك فإنهم وقعوا.. ابتداء.. على التنازل عن مكاسبهم مع الله ورسوله.... لأنهم على ما يبدو لا يريدونها أو يرغبون فيها!!

٣

في عرعر الجاثمة على الحدود العراقية السعودية... التحمت بقوافلنا تلك القوافل القادمة من أعماق آسيا والقوقاز والسهوب الروسية المطلة على سيبريا. جاؤوا من هناك محمولين على أجنحة شوق ليس كالأشواق.. لقد اعتقلتهم الشيوعية الملحدة أكثر من سبعين عاماً.. ما كان يحج يومها منهم سوى أنفار لا يتجاوزون أصابع اليدين، وجلهم من جواسيس السلطة وأزلامها.. أما الآن.. وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي الذي لم يفلت من قبضة سنن الله في الخلق ونواميسه في التاريخ.. الآن ينطلقون بحرية لتحقيق حلمهم المحبوس في الوجدان.. عشرات السنين.

ورغم استمرار شراذم الأحزاب الشيوعية في حكم معظم الجمهوريات الإسلامية المنفكة من أسر الاتحاد السوفيتي المنحل... بدعم من روسيا ومباركة أمريكا، من أجل قطع الطريق على القوى الإسلامية من تسلم مقاليد السلطة والعودة بالبلاد والعباد إلى دينها وعقيدتها وتراثها وذاتها... رغم هذا فإن أفواج الحجيج راحت تتدفق من كل مكان في تركستان وكازاخستان وأذربيجان.. وقرغيزيا وأوزبكستان.. وهم يلبسون زياً واحداً من السراويل الفضفاضة

والقمصان المنقوشة. . . والقبعات المزينة بالخيوط الذهبية الصفراء. . وكانت اللحى البيضاء تزين وجوه شيوخهم، أما الشبان فكانت ملامحهم توحي بالإصرار على الوصول إلى الهدف الذي استعصى عليهم، طويلاً، وهاهم الآن يرحلون للتحقق به ومعانقته.

ومن القوقاز تدفق الداغستانيون والشيشانيون والأنكوش، وكان الشيشانيون بالذات أكثرهم حيوية وسعادة. . لكأنهم وهم يلوحون بأيديهم عبر نوافذ حافلاتهم التي كتب في واجهتها: (الحجاج الشيشان). . يريدون أن يقولوا للناس جميعاً: ها قد جئناك يا رسول الله بعد أن صدقنا معك الوعد، ورفعنا راية الجهاد قبالة واحدة من أعتى طاغوتيات العالم. .

ها قد جئناك يا رسول الله بعد أن زرعنا هناك في ديارنا عشرات الآلاف من الشهداء، وبعد أن قدم رئيس جمهوريتنا المتواضعة نفسه فداء لهذا الدين الذي تمحض له من أجل كسر يد الطاغوت من عدوّ الله. . .

كانوا يلوّحون بقوة. . ويوزعون ابتساماتهم المطمئنة على جموع الحجيج الذين كانوا يردون عليهم بعبارة تكاد تكون واحدة (بارك الله فيكم وأمدكم بعونه).

٤

مررنا بتيماء التي تخترقها مساحات واسعة من الخضرة ذات العطاء السخي. . وتدفقت الذكريات القادمة من عصر الرسالة كزخات المطر. .

بعد فتح خيبر توجه الرسول ﷺ إلى فدك المجاورة فصالحته على مناصفة أراضيها.. أما وادي القرى فقد أعلنت العصيان فحاصرها الرسول ﷺ.. ودخلها عنوة وترك مزارعها بيد أصحابها اليهود مناصفة عليها أسوة بما فعله مع خيبر وفدك.. ولما بلغت يهود تيماء أنباء الانتصارات الإسلامية صالحوا الرسول ﷺ على الجزية وأقاموا في بلدهم.

إنه عليه الصلاة والسلام لا تجرفه إغراءات القوة.. لا يبعده وهج الانتصارات عن مواقع الحق والعدل والسياسة الحكيمة.. فها هو ذا يوظف كفاءات اليهود الزراعية لدعم مالية دولة ناشئة كانت بأمس الحاجة إلى المال لمجابهة التحديات.. وما أكثرها..

لكن اليهود الذين جبلوا على الغدر ما لبثوا أن اغتالوا أحد صحابة رسول الله ﷺ: عبيد الله بن سهل الأنصاري.. ومع ذلك فإن الرسول ﷺ وأبا بكر (رضي الله عنه) من بعده أبقياهم على ما كان قد اشترط عليهم، ولا سيما وأنهما لم يكن لهما من العمال ما يكفون عمل الأرض.

لقد كان معظم يهود الجزيرة من الوافدين عليها هروباً من اضطهاد الروم.. وكان يفترض في ذراريهم تقدير ضيافة العرب لهم حق قدرها... ولكنهم جبلوا على الغدر، فما وجدوا وسيلة لطعن المسلمين ورسولهم ﷺ.. إلا استخدموها، وكان لا بد من العقاب لإعادة الأمور إلى نصابها الحق...

واليوم يحلم اليهود بإعادة عقارب الساعة إلى الوراء... وهذا وحده يكفي لإدامة جدار الرفض والعداء الذي يحمي الوجود الإسلامي من التآكل والدمار، ويمنع أعداء الله من المضي لتحقيق أهدافهم التي يعلنها لسان الحال حيناً ولسان المقال حيناً آخر.... والخرائط المعلقة على جدران الكنيست حيناً ثالثاً...

وقلت في نفسي... والحافلة تجتاز الشارع الرئيسي العريض الذي يخترق تيماء باتجاه الجنوب: لقد فقدت أمتنا الكثير عبر القرن الأخير بسبب اصطراعها مع حيثيات الجغرافيا والتاريخ.. ترى.. أما آن لها أن تعدل وقفتها قبل أن تخسر ما تبقى تحت مظلة التطبيع الذي هو نقيض كل مقولات الجغرافيا والتاريخ.. فضلاً عن العقيدة؟!

٥

وصلنا مشارف مدينة رسول الله ﷺ فجراً، وألقينا عصا الترحال في مخيم (الحج) لكي ما نلبث أن ننطلق، جماعات جماعات، وقد نفد الصبر وتأجج عرام الشوق، لزيارة مسجد الرسول ﷺ، وإبلاغه التحية المعتقلة في الوجدان سنوات وسنوات.

أنيقاً، مهيباً، فخماً، مترعاً بالنور والضوء والندى، مضمخاً بأريج الروح وعطر المحبة وومضات الإيمان، محاطاً بالجلال والجمال....

والدخول عليك يا رسول الله يفوق الدخول على الأمراء والملوك والسلاطين والرؤساء والحكام، رهبة وخشية وخضوعاً، فأنت تملك

المحبة التي لا يملكون عشر معشارها.... محبة تعرش في حنايا القلب وتجري في شرايينه، وتأسر الروح والفؤاد.

الدخول عليك ليس كالدخول على أحد من الناس.. وكيف يكون ذلك وأنت رسول الله المبعوث لإخراج الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان الى عدل الإسلام، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده؟!

تحية المسجد تحت القباب المتلألئة، بين الأعمدة الرخامية المتوجة بالنحاس الأصفر المتلامع، وإلى جوار مئات الآلاف من المصلين حيث تحس حتى أعمق نقطة في وجدانك أنك أصبحت جزءاً من أمة واحدة.. تطوي جناحها على عشرات الأقوام والجماعات والشعوب والأعراق والألوان، ولكنها بقوة هذا الدين تظل أمة واحدة، تنبض بالعشق الواحد وتحمل الوجع الواحد، وتنوء بالهم الكبير.. وحيث تصير الصلاة وعياً جماعياً تذوب فيه الذات وتتلاشى، وتنمحي الفواصل بين الإنسان والإنسان لكي ما يلبث الجميع أن يصبحوا «حالة» متوحدة من الوجد والمحبة والخضوع والتسامي، وهم يصعدون دعاءهم إلى الله جل في علاه.

وثمة النوافل التي يتمنى المرء ألا تنتهي هاهنا حيث يكون لها مذاق ليس كالمذاقات.. كيف وهي تُؤَدَّى في مقام القرب والرضا من الله ورسوله؟

وما ألبث أن أهرع لزيارة قبر رسول الله ﷺ، وأشعر للحظات أني

أتخفف من ثقلة الجسد، وأنني أغدو نضواً يأكله العشق، فلا يكاد يبقي له على شيء!!

تنهمر الدموع بصمت وأنا أقف على بعد خطوات من قبر رسول الله ﷺ، وأبلغه تحيات كل الذين حملوني الأمانة، هناك في مدينتي، وقالوا لي وأعينهم تذرف بصمت: أبلغه عنا السلام وقل له: جزاك الله خير ما جزى نبياً عن أمته.

فهل ثمة يا رسول الله أمة أحبت رسولها كما أحبتك أمتك؟ وهل ثمة أمة سمت أبناءها باسم رسولها الغالي كما سمت أمتك أبناءها؟ وهل ثمة أمة في الأرض تذكر رسولها وتدعو له وتصلي عليه، في كل لحظة وآن، كما تفعل أمتك؟ وهل ثمة أمة حفظت تفاصيل حياة رسولها بكل دقائقها ومنحنياتها، ووثقتها بمداد الأقلام، وبصمتها على صفحات العقول والقلوب كما فعلت أمتك؟ وهل ثمة نبي تلقى من التقييم والتكريم ما تلقيت أنت يا رسول الله؛ بدءاً من كتاب الله الذي أعلن الخطاب الإلهي: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ مروراً بمئات الكتاب والمؤرخين والأدباء والمؤلفين والباحثين على مدى أربعة عشر قرناً، قالوا فيك ما قالوا حتى بلغ أحدهم، وهو نصراني أمريكي لا علاقة له بالإسلام من قريب أو بعيد، يدعى (مايكل هارت) أن يبحث جاهداً وفق منظومة من المعايير الصارمة، عن أعظم مئة شخصية في التاريخ سماها (المئة الأوائل) وأن يمضي خطوة أخرى فيختار أعظمهم على الإطلاق فتكون أنت يا رسول الله؟!

أقف قبالتك نضواً مترعاً بالشوق والحزن والمحبة والإجلال تتقاذفني جموع الزائرين، وأنا متسمر في مكاني أذرف الدموع بصمت متذكراً هذا كله.. فتقر عيني..

إذاً فإن أمتك، على تقصيرها، لم تجفك يا رسول الله، فهاهم أولاء مبعوثوها إليك، يجيئون لزيارتك كل عام ملايين من مشارق الأرض ومغاربها، لكي يبلغوك السلام ويقولوا لك: إنهم لا يزالون على العهد... فالحمد لله...

أي أمة أخرى في العالم فعلت ما تفعله وستفعله مع ملوكها وزعمائها!!

٦

غادرنا المدينة صباحاً وما هي إلا ساعة أو نصف ساعة حتى نزلنا في (بيار علي) لكي نحرم من هناك، ونبدأ الحلقة الأولى في مسلسل الحج الذي لن ينتهي إلا عند طواف الوداع...

الصعود المكافح إلى فوق ببذل جهد روحي وعقلي وجسدي موصول كما هو شأن الخبرة الإسلامية في شتى مناحي الحياة.. الوفاق والتصالح بين قدرات الإنسان، حيث في المذاهب والأديان الأخرى تصطرع وتتقاتل وينفي بعضها بعضاً فيضيع الإنسان ويفقد وحدته وائتمانه الذاتي المنشود.

منذ اللحظة سيتواصل الرحيل يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة..

ولحظة بعد أخرى.. سفراً وتنقلاً وطوافاً وسعياً وقياماً وقعوداً وصلاة وإقامة ودعاء.

منذ اللحظة سنقول للنوم وداعاً، وسنصل الليل بالنهار للتحقق بفرصة أكثر تقرباً إلى الله سبحانه، وابتغاء لمرضاته...

فمن يستطيع، وقد جعل ثواب الصلاة في الحرم مئة ألف ضعف، أن يضيع الفرصة الذهبية، وألا يمحض جهده ووقته للمزيد من الصلوات؟

ومن يستطيع وهو يضع خطواته الأولى لبدء حياة جديدة متطهرة من كل آثام الماضي وذنوبه، ومحاطة بعفو الله ومغفرته، ألا ينطلق بقوة من خط البداية تلك، من أجل أن يتمكن فيما تبقى من العمر المحدود، من الوصول إلى نقطة النهاية والفوز بالجائزة الكبرى؟ من؟

٧

ألقينا عصا الترحال في مكة المكرمة ليلاً.. قبل دقائق كانت الحافلات تجتاز بنا الجسور المعلقة على الشوارع الرئيسية... ومن هناك كانت ترى في الدروب المنخفضة المفضية إلى الحرم، مئات الآلاف من الحجيج وهم يتدفقون على الحرم، أو يعودون منه.. بملابسهم البيضاء.. وسحناتهم المتغايرة، التي تعلن عن أممية لم تشهد لها البشرية مثيلاً.

السكينة والائتمان الذاتي، والفرح والاطمئنان، تفيض من النفوس

والأرواح التي تاقت على مدى العمر كله لهذه اللحظة التي تغدو الآن أمراً واقعاً. . تصير الكعبة، والصفا والمروة، وماء زمزم، والمسجد الحرام. . وعرفات، وجبل الرحمة، والمزدلفة، ومنى، والعقبات الثلاث. . على مدى أبصارهم وخطواتهم.

هاهم الآن يتوحدون ليس مع أنفسهم فحسب، ولا مع بعضهم لبعض كأمة واحدة متميزة فحسب، إنما مع الماضي الموغل، مع اللحظات التاريخية. . . المؤثرة. . مع ذكريات الإيمان العزيزة الغالية وهو يصارع الكفر والطاغوت. . مع الأنبياء المكافحين عليهم أفضل الصلاة والسلام. . وهم يمهدون الطريق لإزاحة الوثنية والتحقق بعبادة الله وحده.

هاهم الآن، وقد جاؤوا من كل فج عميق، ينطلقون وراء إبراهيم وإسماعيل ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم. . لكي يهتفوا بشعار (لا إله إلا الله) الذي هو جوهر النبوات وروحها وهدفها.

هاهم الآن يؤكدون بهذه التظاهرة الفريدة، صدق الاستجابة الربانية لنداء إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت ويدعوان ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾. .

وما أن استقر بنا المقام في السكن الذي أعد لنا على بعد عشرين

دقيقة من الحرم، حتى هرعنا إلى هناك، محمولين على جناح الشوق واللهفة، لتأدية طواف القدوم والسعي بين الصفا والمروة.

ورغم أن الليل كان قد تجاوز هزيعه الأول فإن وفود الحجيج كانت تتدفق على الحرم من كل الأبواب.. هاهنا ليس ثمة فاصل بين الليل والنهار.. تماماً كما أنه ليس ثمة فاصل بين الإنسان والإنسان.. الكل يصير كائناً متوحداً، مترعاً بالعشق واللهفة، يطوف ويسعى ويجأر بدعائه الملتاع....

إنه فناء من نوع غريب.... فناء ينطوي في اللحظة الواحدة على الأنا والآخر.. التحقق الذاتي في أقصى وتائره، والاندماج في الآخرين في أروع صوره.. إنها معادلة لا تكاد تجد فرصتها إلا هنا حيث الجميع ينبضون بالتوق الروحي الواحد.. ويتطلعون معا إلى لحظة الغفران والوعد المرتجى..

كانت النداءات تنطلق على دفقات من هنا وهناك وهي ترفع نداء إبراهيم وإسماعيل ومحمد.. ومئات الأجيال التي قدر لها أن تلبي أمر الله وأن تصل إلى هنا: «لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك... إن الحمد.. والنعمة.. لك والملك... لا شريك لك»...

فهل ثمة كلمات، على هذا القدر من الإيجاز، تستطيع أن تعبر عن مفهوم التوحيد وحاكمية الله سبحانه وقيوميته على مقاليد السموات والأرض، وتقدم في الوقت نفسه حمدها وشكرها لله جل في علاه

الواحد الأحد. . . ومالك الملك. . المعطي الذي لا حدود لسخائه؟ هل ثمة كلمات موجزة كهذه تعبر عن هذا كله. . ؟

طواف مئات الآلاف من القادمين من فجاج الأرض، حول الكعبة، يتصادى بإيقاع متفرد يثير الدهشة، مع طواف الذرات في مساراتها الصغرى، ودوران السدم والمجرات والكواكب والنجوم في مساراتها الكبرى. . . الكل يطوف حول المركز الواحد. . مستجيباً للنظام الواحد، ملبياً أمر الله الواحد الذي لا راد لكلماته، مسبحاً بحمده، كل بلغته الخاصة التي ترفع خطابها الخفي أو المعلن قبالة جلال الله.

لقد أريد للطواف، كما راح يتكشف لي عبر لحظة التجربة، أن يضع الإنسان طواعية واختياراً في مسارات الأشياء والموجودات والظواهر الكبرى. . . هذه تجد نفسها مرغمة على الاستجابة، والإنسان يسوقه اختياره إلى المصير نفسه، لكي ما يلبث وهو يدور دوراته السبع، أن يتوحد مع الذرات والمجرات، وأن يدخل مملكة الله، متحرراً من أيما شيء، ممحضاً للطاعة والإذعان.

وصرخت. . وموجات الحجيج ودفقات الأشواق تتقاذفني. . . جل جلالك يا مبدع الملكوت يا ذا الكبرياء. . وتقدست أسماؤك. . . وقلت في نفسي: هاهي لحظة التجربة فكن أنت والكائنات والأشياء حالة متوحدة، قبالة الله! فما الذي يعنيه رفع الذراع للحجر الأسود واللهفة على لمسه، سوى أنه في بدء الأمر ومنتهاه. . . رمز للأشياء والموجودات التي أريد لها أن تنخرط في مسيرة التوحيد الأبدية، ونشيده الذي لم يزل يخفق بالدعاء منذ زمن إبراهيم وإسماعيل؟!

جرعات من ماء زمزم تبل الريق الذي شفه الوجد، ثم الانطلاق لرحلة السعي بين الصفا والمروة بأشواطها السبعة التي تأخذ هذه المرة صفة الذهاب والإياب.. فكأنها تذكرنا بمعجزة الليل والنهار... والميلاد والموت... والانبعاث والفناء... بالكدح البشري الموصول لإدامة الحياة قبالة تحديات العطش، والجفاف، وحتميات التآكل والفناء...

إنها واحدة من أكثر المسيرات الكبرى في العالم مهابة وجلالاً.. والهدف هو الله سبحانه.. بعضهم يرفع عقيرته بالدعاء.. وبعضهم الآخر يدمدم مع نفسه، وفئة ثالثة اختارت التسبيح بصمت... جماعات وأفراداً... يهرعون إلى النقطة القصوى.. الصفا حيناً والمروة حيناً.. مشاة ومهرولين.... يقفون لحظات عند البوابة التي تطلّ على الكعبة وهم يرتلون ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ ثم ما يلبثوا أن يواصلوا المسير..

وسعيد من يجعل نهاية سعيه موصولة بالصلاة التي يزيدها خشوعاً وخفقاناً روحياً صوت الإمام العذب المؤثر وهو يتماوج بالحزن الإيماني العميق في جنبات الليل بكلمات الله...

٨

في اليوم الذي سبق الذهاب إلى عرفة، انطلقت بنا الحافلات الصغيرة مساء، عبر جولة في أطراف مكة لإلقاء نظرة على مواطن

المناسك وذكريات التاريخ.. هاهو ذا جبل ثور الذي لجأ إليه رسول الله ﷺ وصاحبه الصديق (رضي الله عنه) فراراً من ملاحقة المشركين.. يتسلل إليه الرسول ﷺ في ضحى أحد الأيام، على غير عادته في التردد على داره صباحاً أو مساء.. خطوة من خطوات الإيهام والتدبير ضد أولئك الذي يريدون أن يمكروا به.. يدهش أهل الدار لمجيء الرسول في وقت لم يعتادوه.. لكنه لا يلتفت إلى دهشتهم بل يتجه إلى الصدّيق فوراً، ويطلب منه أن يخرج ابنته من المكان، فيطمئنه أبو بكر بأنه ليس ثمة ما يخشاه.. ويتكلم الرسول ﷺ «إن الله أذن لي في الخروج والهجرة».. فيردّ عليه الصديق «الصحبة يا رسول الله؟» فيجيبه: «الصحبة» وتقول عائشة (رضي الله عنها): فو الله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح، حتى رأيت أبي يبكي يومئذ...

وهاهو ذا جبل النور، وغار حراء الذي تلقى فيه محمد بن عبد الله ﷺ الكلمة الأولى من السفر القرآني العظيم الذي سيقدر له أن يعيد صياغة الدنيا.. وأن يظل الكتاب الأوحد الذي لا تتبدل كلماته... ولا تنقضي عجائبه.

انتابتني قشعريرة هادئة انسربت رجفتها في عروقي وأنا أتذكر لحظات اللقاء الأولى، وأتذكر معها جبهة رسول الله ﷺ تسح عرقاً في اليوم البارد؛ كلما جاءه الوحي الأمين ينقل إليه طرفاً من خبر السماء...

«فجاءني جبريل» يقول عليه الصلاة والسلام عن أول لقاء، وأنا

نائم، بخط من ديباج فيه كتاب فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فغتني به (أي عصرني عصراً شديداً) حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فغتني به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ماذا أقرأ؟ فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فقرأتها.. فانصرف عني.. وخرجت حتى إذا كنت في وسط الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل..

وانسربت بنا الحافلات إلى أماكن شتى مما سيقدر لنا أن نمارس فيها مناسك الحج... ونعذر أنفسنا أمام الله.. وقلت في نفسي: إن على الإنسان أن يلبي نداء الله... وما عدا ذلك فهو من فضل الله...

ثمة أناس يكتفون بالحد الأدنى... بالوقوف عند السفوح الدنيا.. بينما هنالك من يواصل الصعود إلى أعلى حتى تتقطع أنفاسه... فليس ثمة بين الإنسان والسموات العليا حدود يقف عندها أو إشارات تقول له: هاهي ذي نهاية الطريق...

٩

يوم عرفة يوم القمة بكل المعايير الروحية والمادية على السواء.. فليس عجباً أن يقول رسول الله ﷺ.. (الحج عرفة) وليس عجيباً أن يقف ملايين الحجيج قبالة جبل الرحمة، وفي شعابه، وهم يجأرون بالدعاء إلى الله..

إن الحج، قلت لأخ يقف إلى جواري، هو شبكة من الترميزات التي قد تسمح للعقل بأن يخترقها ويكشف عن سرها المكنون حيناً، وقد توصد أمامه الأبواب أحياناً، فيعجز عن إيجاد اللغة التي تمكنه من العبور.. وفي كل الأحوال فإن جوهر العبادة الإسلامية هو الاستجابة لأمر الله، والتوجه إليه.. لكن يبقى (جبل الرحمة) بهذه التسمية ذات الدلالة الواضحة، عنواناً مكشوفاً على الحلقة الأكثر نبضاً وخفقاناً في مناسك الحج... فالمسلم هاهنا يواصل رحلة الصعود إلى الأعلى راجياً رحمة الله.. فما ثمة منفذ في الروح البشري يصل بين الأرض والسماء إلا وأزيحت ستائره لكي ينفتح على مصراعيه قبالة الله سبحانه، لعله يتلقى الرحمة المرتجاة.... وملايين الأصوات تجأر بالدعاء.. «لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك.. إن الحمد والنعمة لك والملك.. لا شريك لك».

وقفنا خلف الإمام عقب صلاتي الظهر والعصر اللتين قصرتا وجمعتا جمع التقديم.. وراح الرجل يدعو ونحن نردّد دعاءه ونؤمن عليه.

لا زلت أذكر لحظات التوتر القصوى.. لم يكن مجرد دعاء ولكنه مزيج من التضرع والتوسل والاعتراف والشكوى.. سيال من الوجع الروحي والحزن الكبير الذي يسعى لأن يكتسح في طريقه كل الصغائر والضلالات والهموم الدنيا، وينقلنا إلى الفضاء الأكثر اتساعاً....

يضعنا قبالة سماء الله الكبيرة حيث يشف الوجد، ولا يتبقى ثمة إلا الإحساس بالتضاؤل والتلاشي إزاء جلال الله. . .

كانت العبرات تخنق صوت الإمام بين لحظة وأخرى. . . وكنا نحن من ورائه نصرخ. . . يا الله. . . ونجهش بالبكاء. . . ويعيد الرجل رفع توسلاته، ونرد عليه عقب كل دعاء: يا الله!!

ما من مرة في حياتي ذرفت فيها هذا القدر من الدموع كما ذرفتها يوم ذاك. . ما من مرة أحسست فيها بلذة السباحة في نهر العين، ووجع الفؤاد، كما أحسست يوم ذاك. . ما من مرة تطهرت فيها حتى آخر حجيرة في كياني كما تطهرت يوم ذاك. . .

والتفت إلى إخواني الذين يقفون إلى جواري فإذا بهم يسحون دمعاً. . تذكرت وأنا لا أكاد أتبينهم، لحظات التجرد لله عبر صلوات الأجداد الكبار الذين حدثتنا عنهم كتب التراجم. . بعضهم كان يغادر السجود وقد ابتل مكانه بالدموع. . . بعضهم كانت تنتابه رجفة تجعل الجسد يهتز كسعف النخيل فلا يقدر على شكمه. . .

وبعضهم الآخر كان يفهق ملتاعاً فلا يستطيع الركوع!!

اللحظة يتأكد لي أن هذا الذي قيل عن الأجداد ليس مبالغة. . وإنما هو حقيقة مؤكدة. . . فها هي جموع الحجيج تذرف سيالاً من الدموع وهي ترتجف، وعندما كان أحدنا يلتفت إلى الآخر لكي يحتضنه ويقبله مهنئاً إياه على الحج، ما كان يتبين من ملامحه شيئاً. . لقد احمرت حدقات العيون، وانتابت الرجفة كل الذين كانوا يصلون وراء الإمام. . .

١٠

وعند الغروب بدأت المسيرة الكبرى.. الإفاضة إلى مزدلفة في الطريق إلى منى استعداداً لرمي الجمار عبر الأيام الثلاثة التالية...

ثلاثة ملايين ينفرون دفعة واحدة في طريقهم إلى هدف واحد.. كانت آلاف الحافلات تتهادى على الطريق في خط طويل لا يكاد يرى أوله ولا آخره، وكانت العتمة تزحف من الأفق الشرقي شيئاً فشيئاً.. وأحسست وأنا أجد نفسي واحداً من الملايين التي تزحف ببطء إلى هدفها تنفيذاً لأمر الله.. أنني أتوحد معهم... مع هؤلاء القادمين من مشارق الأرض ومغاربها.. مع المغربي والمصري والسوداني والسوري والفلسطيني واليمني والخليجي... مع التركي والإيراني والأفغاني والباكستاني والماليزي.. والأندونيسي.. مع القادمين من أعماق القارة السمراء ومن سهوب آسيا الشمالية وجبال القوقاز... مع الألمان والإنكليز والفرنسيين الذين اختاروا الانتماء إلى هذا الدين.. وجاؤوا من ديارهم النائية لكي يشاركوا في مسيرة الحج الكبرى...

وفجأة تذكرت ما كنت قد قرأته قبل أربعين سنة في كتاب (الطريق إلى مكة) للمفكر النمساوي المسلم (ليوبولد فايس: محمد أسد): «إني أراهم يمشون ويركبون ويتجمعون.. كل تلك الملايين من الحجاج بثيابهم البيضاء عبر ألف وثلاثمئة عام.... إني أسمع أصوات أيامهم وأجنحة الإيمان الذي جذبهم معاً إلى هذه الأرض من الصخور

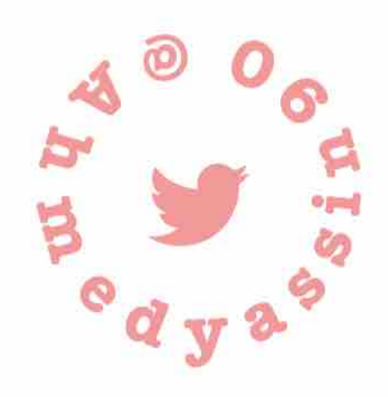
والرمال. . . فينبض الموت الظاهر مرة أخرى، بدفء الحياة فوق قوس القرون، ويجذبني صفيق الجناح القوي إلى مداره، ويجذب ما تقضى من أيامي إلى الحاضر. . . ونتابع ركوبنا. . . هاجمين طائرين فوق السهل. . ويخيل إليَّ أننا طائرون مع الريح، منغمسون في سعادة لا تعرف نهاية ولا حدوداً. . تزعق الريح في أذني بنشيد النصر (إنك لن تكون غريباً بعد الآن، أبداً أبداً) إن العالم أمامنا لفسيح، وفي قلوبنا شرارة من النار التي اشتعلت في قلوب صحابة النبي. . إنهم يعرفون. . إخواني عن يميني وإخواني عن يساري. . إنهم قد قصروا عما كان ينتظر منهم. . . وأن قلوبهم قد تضاءلت عبر القرون، ومع ذلك فإن وعد الله الحق لم ينتزع منهم. . منا. . . لقد سما هؤلاء الرجال فوق حيواتهم الصغيرة. . . وها إن إيمانهم يدفعهم الآن دفعاً إلى الأمام، كأنهم بنيان واحد، نحو آفاق غير محدودة. . والحنين لم يعد بحاجة إلى أن يبقى تافهاً مكتوماً فلقد وجد يقظته، وجد وعد الله الحق متمماً. . في هذا الإتمام يخطو الإنسان خطوات واسعة بكل ما وهبه الله من بهاء وسناء: خطوه بهجة، ومعرفته حرية، وعالمه دائرة دونما حدود. . . . وأستدير في شدادي فأرى خلفي الألوف من الفرسان بثيابهم البيضاء. . ووراءهم الجسر الذي جئت عليه. . لقد خلفت الآن آخره ورائي، في حين ضاع أوله في ضباب المسافات والأبعاد. . ».

وقلت في نفسي وأنا ألقي ببصري إلى خط الأفق البعيد متابعاً قوافل الحجيج التي تنساب بهدوء تحت ستار الليل: ثمة فارق يصعب قياسه بين أن تقرأ عن التجربة وأن تعيشها!!

ورغم أن عبارات (محمد أسد) أدهشتني يومها، حتى كدت لكثرة قراءتها أن أحفظها عن ظهر قلب، فإنني اللحظة أشد دهشة وانبهاراً..

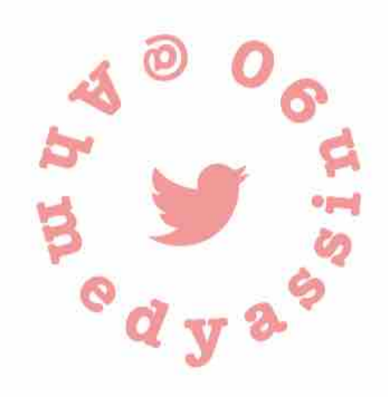
فها أنا ذا أعيش التجربة نفسها.. واحداً من ثلاثة ملايين حاج جاؤوا من كل مكان لكي ينتظموا في المسيرة الكبرى، ويتوحدوا.. رغم تفاوت البيئات والانتماءات والأعراق.. استجابة لنداء الله ودعوة إبراهيم أبي الأنبياء....

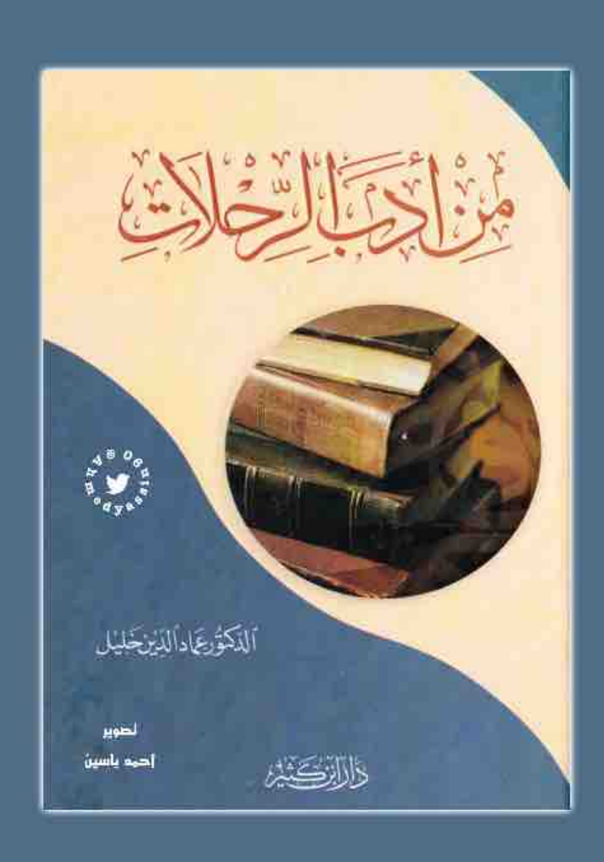
 


@Ahmedyassin90

فهرس الموضوعات




@Ahmedyassin90


من أدب الرحلات
الدكتور عماد الدين خليل
دار ابن كثير
تصوير
احمد ياسين